مع تحياتي : علي مولا

وجدانيات

أسامة أنور عكاشة

أوراق مسافر

أتمنى لكم أمتع الأوقات مع

منتديات ليلاس الثقافية

إهـــــداء

إلـــى... ... ...

الوهــم الذى كـــان يومـــا حقيقـــة ...

.. والجـــرح الذى كـــان يومـــا ... وردة ...

.. والألم الذى كان يوماً ... ترنيمة حـلم...

أسامة أنور عكاشة

تقديم

في ربيع عام ١٩٩٢ ... طلب مني الصحفي النابه والصديق «محمود سعد» وكان يدير مكتب إحدى المجلات العربية في القاهرة أن أكتب صفحة ثابتة ألتقي فيها مع قراء هذه المجلة كل أسبوع .

وفاجأني الطلب ...

صحيح أنني لم أكن حديث العهد بكتابة المقال الصحفي ... ولكن ... كنت أكتبه أحيانا عندما أحس بحاجتي إلى التعبير عن رأيي في قضية ما من القضايا المثارة على الساحة ... خاصة إذا كان هذا الرأي لا يمكن فنيا أو عمليا التعبير عنه في دراما أكتبها ...

هذا إلى جانب أنني لم أفكر لحظة ... ولم يدر بخلدي ... أن أمارس الكتابة المنتظمة في أي صحيفة ... وكان أن أحسست أولاً باستحالة الطلب وبدأت أمهد للاعتذار ... ولكن «محمود سعد» صحفي شاطر ... استطاع أن يستدرجني ويهون عليّ الأمر حتى كتبت ...

قبلها واجهني سؤال : ماذا أكتب ؟ ...

لم يكن مطلوبا أن أكتب المقال السياسي ... لأن المجلة بعيدة تماما عن السياسة ...

ولم أرد أنا أن أكتب في الفن ... باعتبار أن انتسابي إليه قد يؤدي إلى حساسيات لا لزوم لها ... واقترح عليّ محمود ... أن أكتب : خواطر ... أو شطحات في الفكر والحياة والعاطفة ... فكان أن فتح لي الباب وحل الإشكال ...

قررت أن أكتب في الرومانسيات ... أترك نفسي لتيار المشاعر يحملني في سفرة يومية عبر أجواء اللاشعور والمخبوء ... وما انطوت عليه الجوانح ... وأردت أن أغمس سن القلم في شغاف القلب ... يستمد مداده من الجراح الحية ... ونسيج الذكريات وأحلام اليقظة وأطلال الآمال الكسيرة وإشراقات الأماني الوليدة ... مقدراً أنني في حقيقة الأمر لا أكتب تهويمات تتطاير في الهواء كدخان ... وإنما أكتب حقائق نفسية تبدو شديدة الخصوصية ولكنها في واقع الأمر تلمس أوتار القلوب لدى كل قارئ ...

وتوالت مقالاتي في الصفحة الأخيرة التي خصصت لأوراق المسافر طوال ما يزيد عن ثلاث سنوات ... دهشت لها قبل أن يدهش الآخرون ...

لم أتصور قبلاً أن لديّ كل هذا المخزون ... وأن بداخلي هذا الشاعر وإن لم يك ما يكتبه شعراً ... حتى أنني أنكرت نفسي حين عكفت على مراجعة المقالات لإصدارها في كتاب ...

وحدثني الأصدقاء فقال قائلهم ...

ليس هذا هو أسامة أنور عكاشة الذي نعرف ... وقلت مسايراً : وليس هو الذي أعرفه أنا أيضاً ...

ولكنني حين دققت النظر وأمعنت التفكير ... وجدت أن الكاتب ليس هو نفسه في كل مرة يكتب ... وإذا كانت دراما التليفزيون تحتم أن يكون كاتبها لصيقا بالواقع وأن يوظف كل إمكاناته وإبداعه لخدمة هذا الواقع بتفسيره والتعبير عنه بعيداً عن مغامرات التجريب ومخاطبة« الخاصة » ... فإن للكاتب - الموهوب جوانب إبداعية أخرى يعبر فيها عن ذاته وعن هواجسه وأحلامه لاسيما إذا اقتربت آليات

الإبداع عنده وتلامست مع روح «الشعر» .. وأبادر فأقول أن ماسيقرأه المتلقى عبر هذا الكتاب وما يكون من «وجدانيات» ليس شعراً ولا هو محاولة لكتابة «قصيدة لنثر» أو الشعر الحر أو غيرها مما حفلت به الساحة الأدبية من أشكال التحايل أو التجديد أو أياً كانت المسميات . . .

فقد أستطيع أن أنسب هذه «الوجدانيات» لما اصطلح على تسميته «بالنثر الفنى» والحق أقول أننى لم آمن حين كتبتها بوضعها أو بتصنيفها ضمن «شكل» أدبى بعينه ولا يعنينى الآن أن يعدها ناقد ما مجرد «خواطر» مرسلة أو يصنفها آخر ضمن هذا الجنس أو ذاك من أجناس الأدب . . .

ولعلى لا أنهى هذه المقدمة دون أن أعبر عن امتنانى العميق لأصحاب الفضل فى صدور هذه الوجدانيات . . . للصديق محمود سعد . . . وهو من أصر على أن أكتبها وصبر معى وعلىّ طوال سنوات ثلاث . . . ولولاه ما كانت أصلاً ! . . .

ويبقى أن أتوجه بالشكر للأساتذة أصحاب دار «نهضة مصر» للطباعة والنشر لما أبدوه من حماس كريم . . . وما بذلوه من جهد لإخراج هذا الكتاب على أفضل صورة . . . .

ولك أيها القارئ العزيز شكرى الخاص إذا قرأت فاستمتعت ورأيت أنى لم أخلف حسن ظنك بى . . . .

ولك اعتذارى إذا وجدت فى سطورى ما يزعجك أو يضيع وقتك . . . وعلى الله قصد السبيل . . . .

أسامة أنور عكاشة

قدر!

أن نلتقى الآن ! . . قدرا

أن تتقابل أقدامنا على جسر لم نعبره من قبل! وبيننا مسافات من أميال وسنوات . . . أيضا قدرا

غريبان اجتمعا فى رحلة ليل لم يقطعها قطار ولم ينتبه لها الزمن ولم يتهيأ لها المكان . . . لكنها قدر . . .

طرفة عين لا أكثر! لم يعد العالم بعدها كما تعودت أن يكون!

بتشابك الطريق! يتقاطع . . نتواجه فى المفترق!

من سنوات طوال وكل منا قد حدد اتجاهه واستسلم لأسهم تشير له آمرة «الدخول اجبارى . . . والسير فى هذا الاتجاه لا مفر!» . . . وأطعت قدرى . . . سرت دربى . . . وألقيت عصاى على كاهلى . . . وشرّعت عيناى فى أفق لا تعبره شمس النهار ولا تتألق فى ليله نجمة هادية! ولم تتكاثف فى أرجائه سحب حبلى

بطرٍ قريب . . . جف حلقى . . وتشقق لسانى . . ودميت أقدامى!
ولم يبق لى من زاد إلا لقيمات الصبر المرة ألوكها مع الأيام . .
حجراً يدور فى رحى لاتطحن غير التراب . . .

رآه من طعم التراب! . . .

لعلك قد عرفته وأنت بعدما زلت فى الربع الأول من دربك الطويل . . .

رأيت الطعم لحا فى نظرة يأس تبرق فى عينيك كعاصفة سوداء . . . قرأت سطور القصة . . . كانت الكلمات مألوفة . . .
كأنى كتبت بها قصتى! . . .

يوماً قالت لى العرافة . . .

- ستلقاك على نفس الطريق! وليس فى نفس الموعد! . .

أدركت الآن فقط أن اللعبة كانت الزمن ! . .

لم تشأ الأقدار أن يلتقى الغريبان فى الزمن الصحيح! لعبت بعقارب الساعات

. . . أوهمتنا بأن السنوات الطوال تساوى الأيام . . . وأن الأيام تساوى اللحظة . . . وصدقنا! تحرك كل إلى صاحبه وكان كل الدروب مغلقة إلا درب اللقاء . . .

التقينا . . . ونحن نعرف صاحب اللعبة! ونعرف لعبته . . .
ونعرف كيف ينسج خيوطه على نول الصدفة . . ويلونها بألوانه العابثة ليصنع منها فى النهاية ثوبا مزدوج الوجه . . .

- الحب يا ولدى كما تراه . . . فارتدى ثوبك على الوجه الذى تحب . . .

- ولكننى لا أرى شيئاً فقد عصبت عينىّ ! . . .

- وهل من عاشق يرى أقداره ويختار؟

وحملت إليك السؤال وأنا أعلم أنك مثلى لاتعرفين الجواب . . .

وعصفت بأعماقى رياح التمرد! أحسست بالمهانة . . . ورفضت الاستلاب . . .

من يفرض السؤال . . . يفرض الجواب . .

إذاً فلنضع سؤالنا . . . ولنلق بأسئلته بين حجرى الرحى ليطحنها مع التراب . . .

. . . ولنبدأ الطقوس . . .

انظرى فى عينىّ . . . واقرأى الحروف . . .

ومن عينيك أتلقى الكلمات . . . .

إذا أردنا ستفعل . . .

لن ترتدى ثوبه . . .

فقد أردنا ! . . وحين أردنا صنعنا نولنا الصغير . . . وغزلنا عليه الكلمات . . خيطاً لامعاً من شمس الخريف . . . يفسد لعبته الزمنية . . .

فيكون . . ربما يكون هو اللاعب الجديد . . . ربما كان قدر!

كلمات من يوميات قديمة !

أعيذها نظرات منك صادقة

أن تحسب الشحم فى من شحمه ورم

«أبو الطيب المتنبى»

خريف

تتراكض سحب تشرين . . تتسابق . . . تلتحم . . تصبح الشمس أسيرة . . . وتسرى فى الأطراف برودة الزمن القادم . . .

والزمن القادم يا أختاه يرتدى مسوح الفارس المهزوم . . . يمتطى ظهر جواد أثخنته الجراح . . . تتدلى من سرجه المهترئ قربتا ماء فارغتين إلا من قطرات الثمالة . . يجرجر على الأرض سيفاً صدئاً ويشرع أعلاه رمحه المكسور . . .

. . . الزمن القادم يا أختاه طفل مقرور أدركه المشيب قبل الأوان فلم يعرف الصبا ولم يعش لحظة شباب . . . ولد عارياً فتغطى بوريقات أشجار زاوية ولملم أطرافه على الطوى . . .

الزمن القادم يا أختاه . . . شحاذ يجلس فى دروب المدينة العتيقة يعزف على قيثار خرب متقطع الأوتار ألحاناً منسية ويردد أغنيات الحب القديمة التى لاتطرب أحداً . . .

الزمن القادم يا أختاه مسافر أضاع بوصلته . . . وغمت عليه الشمس والنجوم . . . وصمتت دونه الرياح فوقف عند المفترق يجيل بصره بين الدروب المتشابكة والإشارات الخادعة . . .

درب الماضى هو درب المستقبل . . وعليه لافتة تشير إلى السير فى اتجاه واحد . . . لا عودة . . . لا رجوع . . .

وعند قمة المنحنى ينتهى الدرب . . . ولاتبقى إلا خطوة نحو الهاوية . . .

. . . ودرب الانتظار تعلوه لافتة «ممنوع الانتظار» . . .

ودرب السلامة تعلوه إشارة الخطر . . .

ودرب الندامة تخلقه الأشواك وتربض فى منحنياته وحوش الرهبة . . . ولم يبق هناك إلا درب وحيد . . . بلا لافتة . . . ولكن زمننا القادم يعرف . . هو درب ذاتى . . .

أيها الداخل . . . لن يكون هناك خروج . . .

. . . .

صوح الزهر وجف العبير . . .

وتساقطت قطرات الحزن على الخدود . . .

وقريباً تأتى الثلوج . . .

فلنبحث عن رداء يا أختاه . . . ومظلة للمطر . . .

ولنملأ جتوبنا ببعض الزاد . . . لقيمات فقط . . . فالرحلة قصيرة . . أقصر من عمر فراشة . . .

أقصر من مدى خطوة . . .

زمننا القادم ينتظر عند المفترق . . . ويشير لنا كي نسرع . . . وعلينا أن نطيع . . فربما . . .

ربما فقط كان يعد لنا تحت معطفه الثقيل أعجوبة يفاجئنا بها . . . من يدرى؟

أما زلنا نقوى على الأمل . . .

مازلنا نحيا . . .

كلمات من دفتر قديم :

الذكاء عند **بعضهم** . . .

ليس أن تفهم الآخرين . . .

ولكن أن تمنعهم من فهمك !

سراب

خصلة شعر تحركها ريح نزقة . . . ترعشها كخفقة قلب . . تطويها وتبسطها كشراع ملاح تائه . . . تحثو بها على جبين بللورى . . تلثمه . . تهمس له . . تناجيه . . تشتعل تحت نار الغروب . . . تتوهج . . . تنثر حولها رزازاً من ألق ساحر . . .

. . . تولد من حضن الأفق . . . .

تتهادى ملؤها كبرياء . . . وترفل فى ثوبها السماوى المتوج بإكليل وردى . . . تبدو كعروس إغريقية تتوائب على قمة الأوليمب . . .

كسراب تقبل ولاتصل . . تعد ولاتفى . . تغرى ولاتلبى . . .

أجلس على كثبان الشاطئ بكأسى الفارغ . . . وأنتظر فيض الرحيق . . . .

بجوارى سلتى الخاوية . . . تنتظر كرمها الموعود . . .

لطالما استغرقتنا أحلام الدوالى . . . تتساقط حباتها بين شفتين تشققتا ظمأ واحترقتا فى موسم الجفاف . . .

لكنها قادمة . . .

ألمح بشاراتها زبداً يتفتت على الرمال . . . وأصدافاً مبللة تقفز بين أصابعى وتهمس فى أذنى بسر الرحلة الطويلة . . .

لطالما حاورت البحر . . . سمعنى كثيراً . . . وسمعته طويلاً . . . أخبرنى عن كل الأشياء وألقى بين يدى بكل أسراره . . . حكى لى عن عالمه المسحور . . . عن جنياته . . . وحوائس أعماقه . . . عن قصص المحبين . . . وحكايا العشاق وسفرات الراحلين . . . وأشواق التائهين . . .

صرنا أصدقاء فسألته عنها . . .

لم يجب البحر . . .

تحول إلى زجاج أصم تنعكس عليه أشباح رمادية . . .

سألت الرمال . . . خططت بأصبعى اسماً . . . وضعت تحته خطاً . . رسمت علامة الاستفهام . . توترت الرمال تبعثرت وانفلتت حباتها فى مسار العاصفة فانمحت الحروف . . . وانطمست علامة الاستفهام . . . ونسيت السؤال!

لكنها قادمة . . . هاهى تسرع نحوى . . نوارة صاخبة . . . كأنها تناديني . . . تهتف باسمى . . .

سأخوض إليها عباب البحر . . . سأشرع ذراعى فى وجه

الإعصار . . . أفتح لها صدرى . . ألقى برأسى فى أحضانها . . تغمرنى . . . أغوص فى أعماقها أرفع رأسى . . . تلسع شمس الظهيرة عينى . . . تحرقهما ذرات الملح . . . أحتمى بها ولكنى لا أجدها . . .

كأنها لم تجئ . . . كأنها لم تكن . . .

وكأنى كدأبى كل مرة . . . أقبض على حفنة مياه تتسرب من بين أصابعى فأفتح كفى على الهباء . . .

أقلب كأسى . . أنقف سلتى . . . أنتظر الأخرى . . . .

هاهى تقبل من بعيد . . . وها أنا أجرى إليها . . .

لم يخبرنى أحد من قبل أن الأمواج تموت على حافة الشطآن .

كلمات من دفتر قديم :

انهم يقولون . . . ماذا يقولون؟

دعهم يقولوا!

«مثل غربى»

شـاهـد

هبط من عربة الترام وقد أغلق قبضته على القطعة المعدنية بقوة هائلة حتى أحس أنه لو أراد أن يفتحها ثانية لما استطاع . .

كان العرق ينزف من كل مسامه كقطرات الثلج . . ولم يجرؤ على النظر للخلف . . . رغم إحساسه بأن هناك تياراً من نار يلهب رأسه . . .

. . . عبر الطريق إلى الرصيف . . . فكر أن «يضعها» في جيبه . . . لكن ذراعه شبه المشلول لم يطاوعه . . كان الخدر يختلط بالألم كلما حرك ذراعه . . وأحس لها «بلمس» جمرة تحرق لحم الكف . . ما الذى جعله يفعل هذا؟

لماذا استسلم لذلك الهاجس الشيطانى؟

. . لقد كان وحده تقريبا فى عربة الترام . . . لم يكن هناك سواها . . تلك العجوز الموغلة فى القدم التى احتاج الأمر حين حل موعد هبوطها . . أن يتعاون مع محصل التذاكر حتى يمكنها النزول

فى المحطة بعد أن سبقها كلبها الضخم . وقد حدث الأمر فى هذه اللحظة بالذات . . . بعد أن اختفت العجوز وكلبها وسار الترام . . وارتد هو ليجلس مكانه . . . وهنا لمح القطعة . . على المقعد الذى كانت العجوز تحتله . . .

كان هناك شعاع من مصباح العربة ينعكس عليها . . لامعاً كنصل حاد . . . براقا كإنذار . . . مختلجا كدعوة إغراء . . .

تظاهر برغبته فى تغيير مكانه . . . وأسرع إلى المقعد . . . تلفت حوله ليرى موقع المحصل . . . ولكنه كان قد انتحى ركنا وغرق فى النوم . . . وامتدت يده تلتقط القطعة . . .

حلية من الذهب الخالص تتوسطها قطعة من الياقوت الحقيقى . . . دسها فى جيبه وقلبه تتسارع دقاته فى عنف . . ولعابه يجف فى حلقه . .

. . . يا لله ! متى كان لصاً؟

سار والسؤال يدق فى رأسه موازيا دقات قدميه على أرض الشارع الخالى فى هدأة آخر الليل . . . .

كيف يعود بهذه القطعة إلى بيته؟ وماذا سيقول عنها لزوجته؟ اشتراها؟ من أين وهى تعرف جيدا أن ماهيه يكفى بالكاد لشراء التبغ والعودة إلى المنزل . .

. . . لم يقول أنه وجدها فى الشارع؟ لم يقول الحقيقة .؟

تشابكت الأسئلة وأصابته بالدوار فى لحظة . . نفس اللحظة التى لمحه فيها . .

كان يسير موازياً له على الرصيف المقابل . . ربما كان يتبعه من البداية . . .

افترض أولاً أنها مجرد صدفة . فأبطأ فى سيره ثم توقف ثم أسرع . وفى كل حالة كان يفعل مثله وكأنه كان ظله . أحس بخوف مبهم يهاجمه فقرر أن يجرى . لديه فرصة فالمنزل قد اقترب . . . بعد تقاطعين لا أكثر . . .

جرى جرى الأجر . وهذه المرة لم يكن بموازاته وإنما كان خلفه .

أحس باللهاث الوحشى ثم غمغمة غاضبة . وخانته ساقاه . . فتوقف واستدار مرعوباً فوقف المطارد بدوره . .

كان شديد الضخامة وعيناه تبرقان بأمر صارم . وأنيابه الحادة تنتصب فى وجهه مهددة متحفزة ماذا يريد ! أجابته بنبحة حادة غاضبة ونظرة من لعينيه الزجاجيتين نحو قبضته

نظر إلى قبضته وتذكر ! فلانت عضلاته وفتحها

نبحة أخرى جعلته يفهم .

رمى القطعة على الأرض . . انقض عليها الكلب وقبض عليها بأنيابه . ثم انقض يعدو مختفياً فى حلكة الطريقة

أما هو فقد واصل طريقه وهو يتثاءب ويحلم بالسرير والنعاس

كلمات من دفتر قديم :

أطعت فىّ عواذلاً فهجرتنى

وعصيت فيك وقد جهدن عواذلاً

«جميل بثينة»

حلم!

فى الغروب . تهاوت شمس تشرين وغطسات فى البحر

كنت قد انتهيت من قصتى . وفرغت من آخر حرف فيها وألقيت على صديقى نظرة التساؤل الأخير

تقطب حاجباه . . وشرد طويلاً ثم همس :

ـ تعرف أن الحلم قصير .

ـ وأعرف أن العمر الراكض أقصر

. . . وصمتنا

لم يعد هناك ما يقال . . فرحلة الألف ميل لم تبدأ ! لم تخط خطوتها الأولى وبقى الطريق طويلاً . . . عسيراً . . يلوح كأنه الأبد !

لم أسأل أحداً غير صديقى ! وصديقى لم يعرف ماذا يقول نهض وألقى سلاماً . وتوارى . . ينفض العالم من

حولى تلدغنى ريح الوحدة! أفرع للقلم وللأوراق .. أكتب أتكلم ... أصرخ! أصنع من الصفحات الحلم رجالاً .. ونساء أطفالاً تتقدم طفلة الطفلة تمسك بأصابعها زهرة تغوصها في قلب يرف . تتقاطر حرفاً حرفاً على ورق أبيض تقرأها الطفلة .. تهمس دامعة العينين ...

- عمر الورد قصير ...

- والعمر الراكض أقصر .

لثمت أوراقى المسطورة أمست الأوراق قصيدة غنتها الطفلة بكل اللحن تهدج محزوناً وبجعت أوتار المعزف . طلبت اسماً للمقطوعة

«كم يبلغ عمر الأحزان؟» ..

قالت . ليلة! ... قالت لحظة! قلت : عمراً ..

لم تعد الطفلة طفلة .. صارت امرأة فى لحظة! جلست «موناليزا» تبسم للفنان

لم أملك ساعتها . فرشاة .. لم أرسم لوحة ..

همست تسألنى فيم تفكر؟ ..

لم أتكلم ردت عنى عينى لا أعرف ماذا أكتب ماذ أعرف ... ماذا أرسم!

هل أنظمك قصيداً فى ديوان العشق؟ أم أعزفك «سوناتا» على أوتار القلب؟

أم أرسمك غلافاً لكتاب العمر؟ ..

قالت : أخشى أن يصدق ماهمسوا به ..

عنى؟

قالت : لعنتك الكلمة! لعنتك الكلمة!

وماذا أفعل والكلمة قدرى؟ ..

من صدرى أخرجت الزهرة دامية الأوراق ... عادت امرأتى طفلة ... مدت يدها تطلب زهرتها ..

رجعت للصفحات المسطورة .. عادت حرفاً ... صارت جزءاً من كلمة . . حمقت بعضا من بصمة .. رنت فى الصرخة سيرة ...

أيقظنى الصوت!

وعند السور الرابض فوق المرج . كان صديقى ..

يجلس مكدود النظرة

- هل كانت قصتك مجرد حلم؟ ..

قلت .. تعرف أن الحلم قصير ...

قال ... والعمر الراكض أقصر ..

كلمات من دفتر قديم :

إذا كان ذنبى أن حبك سيدى

فكل ليالى العاشقين ذنوبى

أتوب إلى ربى وإنى لمرة ..

يسامحنى ربى إليك أتوب

لقاء!

وبدا الربيع مبتسماً في موسم الأمطار أشرق ذات يوم من مشيمة فجر شتوي بارد . . . تسللت خيوط الدفء خجلى ولكنها مصرة تصر على اختراق المساحات الثلجية تصاعدت أنفاسه بخار يتكثف على أوراق الشجر وزجاج النوافذ

وقفت خلف النافذة أرمق الدرب . . . لعلي أراك

لم أدر سر القطرات المنزلقة أمام عيني . . أكان المطر . . أم هي الدموع . . . .

جفت كل الدموع في ليل سابق! . . ولم تجف الأمطار

ربما لأني أحب الأمطار . . .

أحببتها يوم زفت إليّ البشرى! انتظرت طويلاً وكابدت لعربه والملل وعاشرت الشجن تحرق جوفي بكل جفاف البراري والقفار . . . وبت أحلم بمطر . . .

أحلم بالقطر يبلل جوانح الشوق . ويروي عنه الظمأ . . وينبت في قلب الصخر زهرة بيضاء .

. . . وحين استيقظت من الحلم على همس المطر . . كنت وردتي

كنت هناك . . عبر الأسوار حيث لا تطالك أيدي لا مبالاة نجمة مثل نجمة تحدق في ليلة لم يبد فيها القمر . . . أو كنت ومضة . . . ومضة قناديل في حضن شرفة مسورة . بلوح لتائه عن بعد فيهديه المسير

تضوعت الأمطار بعطرك وتلألأت ببريق عينيكي مخلعة عني رداء الخريف القاتم وجريت أغتسل تحت الدفق الربيعي وملأت كفي وشربت حتى الثمالة

نفضت عني قطرات المطر . . . نثرتها على أوراق الشجر . . وملت بها شفاه الورد . .

سقطت في حجري وردة . . . رفعتها إلى شفتيّ . . .

وكان الرحيق هو البشرى!

وفي المساء جلست أنتظر . . أمسكت قلمي وكتبت قصيدة شعر .

نظمت من الأنغام والذكريات والأشواق عقداً أحيط به نحرك . تلثم حباته ما سال في مجرى العبير في صدرك

أمسك العقد بين أصابعي . وأنتظر في شرفتي المطلة على درب الفيروز . . . حيث حظرتني ذات مساء صيفي بلا موعد . .

عبر الأسوار أراك .. مغلولة اليدين .. مقيدة الخطى
أسيرة سجان أعمى .. لكن القلب يطير...

يخفق بجناحيّ عصفور... يفلت من ربق الأسوار...

يرف فوق غمام الأحزان...

ينزع ريش الأوهام... يغتسل بنور الشمس..

يتجدد كالعنقاء... وفوق السور الأزرق يهبط...

يقفز نحوي

في صدري يخفق عصفور آخر..

هكذا كتب القدر المسطور

سوف يكون..

رغم الأسوار.. رغم منافي البعد..

سوف يكون..

يولد من رحم الإعصار .. طفل ربيع...

يحبو في مرج الصيف.

يقبل في نفس الموعد... ذات مساء.. ليكون لقاء

كلمات من دفتر قديم

الحب في الأرض بعض من تخيلنا

لو لم نجده عليها لاخترعناه

«نزار قباني»

سؤال..

إلى أين؟..

لم يكن سؤالاً؛ كان خوفاً أحسست به يرتجف في نبرات الصوت التي تتظاهر بالشجاعة!

حاولت أن أكون بسيطاً .. ربت على الخصلة الرعناء التي تغالب نسمات النيل العابثة... وهمست

لا تلق بالاً إلى الغد... فهو بظهر الغيب .. واليوم لنا!

أشاحت بوجهها غير راضية وكررت السؤال .. فرفعت قناع الرجل البسيط ووضعت قناع الفيلسوف!

.. سؤالك يحمل في ثناياه الجواب!

وحالة «التساؤل» تضم في أحشائها جنين التمرد .. الذي

يولد كائنٌ من كائنات الغضب والعذاب! وينمو حتى ينفجر على نفسه . ويتناثر شظايا تحرق كل مرافئ الأمان!

الأمان توأم السكون! السكون توأم العدم... وأنا لا أبحث عن عدم.. أبحث عن حياة..

التمعت عيناها ببريق الغضب المشحون وفقدت منطق الفيلسوف! خلعت قناع الفيلسوف! بحثت في حقيبتي القديمة عثرت على قناع العشق وضعته عاودتني ذكرى الليالي المترعة بالشوق وتنسمت عطر الشرفات الصيفية خرج صوتي مترنمًا

- لاتسأليني! فالسؤال مصرع العاشقين! دعيني أواصل الحلم بأحلام جديدة، والحالم لايسأل لايؤرقه غير خوف اليقظة! الحالم لايبحث عن غاية ولايثير فضوله أن يعرف نهاية الطريق.

سؤال العاشق مضيعة للوقت.. والوقت ضنين... فلا تضيعي مسرات البداية بظلال النهاية البعيدة. أعرف مثلك أن الحب تسري عليه قوانين البشر... يولد... فيكبر.. فيشيب! ومثلما لايدفن الإنسان لحظات العنفوان في خوف من الليل القادم... علينا ألا نقتل «الآن» بالتساؤل عما يأتي بعده

مدت يدها ونزعت قناع العشق وألقت به على الطريق تتقاذفه رياح الشتاء تحت قطرات المطر!

مددت يدي أبحث... لم أجد في الحقيبة أقنعة أخرى!.. همست تلح في إصرار.

لامفر من الحقيقة!..

أدركت أن اللحظة التي طاردتني طويلاً قد أمسكت بي . استجمعت كل ما بقي لدي من شجاعة... ونظرت إليها.

- تسألين إلى أين؟.. ومن أين لي أن أعرف؟..

إنني ياعزيزتي أعتمد بداهة الرجل البسيط.. ولا أمتلك حكمة الفلاسفة ولم أعد أجيد بلاغة العاشقين... وليس عندي ما أجيب به على سؤالك... صمتت.. شردت عيناها.. تابعت سربًا من طيور المساء الراجعة إلى أعشاشها . وهمست هذه الطيور تعرف إجابة السؤال

أجل ياعزيزتي . ولكنها لاتسأل.

كلمات من يوميات قديمة

قد تخدع بعض الناس كل الوقت

وقد تخدع كل الناس بعض الوقت

ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل

الناس كل الوقت!

«حكمة غربية»

حين تأتي!

قيل له .. حين تأتي ... سنعطيك زهرة .

.. كان الموعد متوافقاً مع غياب الشمس

على الرصيف كان يقف رغم هطول المطر ... كان الرذاذ المتساقط ينقش مياه المرفأ بآلاف النجوم المرتعشة ...

وتناهت من بعد قريب صفارة الوصول .

كل الصفارات تتشابه .. الرحيل والوصول ... نحن فقط نترجمها في الأعماق .. نغني عند الوصول ونبكي عند الرحيل ...

وفي المرتين تعزف موسيقاه

لم يتحسس بعد تناغم الأصوات في داخله ... كان ينتظر

كتلة ضباب تتقدم على شماء المرفأ ..

تتحرك ببطء .. تتكاثف مع الضباب وبخار الماء ثم تنفصل عن كتلة الرماد المحمر في خط الأفق .. تغيرها شمس تغرب لآخر مرة .

الثقل في الأقدام المبتلة يرسل تياراً من برودة ثلجية تتسرب إلى الساقين فيشعر بانفصالهما عنه ... وعيناه مصلوبتان على الكتلة السوداء تخب في عباب مضطرب

آه

كم من مرة وقف وانتظر ... حتى دخلت كل السفن وهبط منها كل المسافرين

ولم تعطه واحدة منهم زهرة ..

لعل زهرة اللبلاب هي التي تندر في مواسم السفر .

قيل له .. حين تأتي لابد أن يصحبها برق ...

السماء رمادية ولكنها تخلو من سحب سحاب .. حتى تساءل من أين يهطل المطر ...

السماء لم تكن حبلى بغمام يمطر ...

لعلها قطرات الندى تأتي بلا موعد .. والطبيعة كثيراً ما تتمرد على السائد والمحتوم ... الطبيعة قد لاتكون هي نفسها ..

دبت الحركة في الموجودات حوله ...

سرعت أقدام كثيرة تهتك الصمت .. وسرى هسيس المطر .. تسحبه في لحظات أصوات بشرية تنادي وتصرخ وتضحك وتتشاجر ..

وقد بدأ الدرج الممدود على الرصيف يهتز ومن جوف الباخرة تتسرب الوجوه . . . ترى أين هى ؟

عرف أن القانون يحتم مجيئها على متن هذه الناقلة العملاقة

دارت عيناه تتفحصان كل من يعبر الدرج . . قاطعت رؤيته مشاهد اللقاءات الحميمة ودموع الأشواق الطويلة

تنفس بعمق لتتسرب إلى أنفه رائحة الزهرة . . .

تقترب مرتدية معطفاً رفعت ياقته حتى أخفى نصف الوجه . .

فى عروة المعطف كانت زهرة البيلك . . أقبلت . . . خفق قلبه حتى اختنق . .

مرت به . . لم تعطه الزهرة . .

التفت خلفها . . . فلم يرها . . .

انتابه اليأس . . فالموعد هو الأخير . . . وبعده سيرحل إلى مرفئ أخرى . . فى أرض مجهولة

كلمات من دفتر قديم

الشجن . . . دمعة نهاية تنحدر

على خدود الذكريات لترسم

بسمة حنين لماض لايعود .

نـبيل الفجر

لم يكن قد مضى على ذهابه للفراش ساعة أو بعض ساعة حين أيقظه رنين الهاتف . . . فتساءل فى ضيق عن الطالب . كان صديقه

- كنت فى الساحل الشمالى اليوم . رحلة عمل . . .

- وماذا بعد؟ . .

- ألم تقل لى أن «س» قد سافرت إلى أسوان مع أبيها ؟ .

أجل وقد طلبتنى على الهاتف منذ ساعات قليلة

- آسف . لقد رأيتها اليوم فى قرية الشمال ولم تكن وحدها !

ظل واجماً لدقائق . وقد أحس بألم من نوع غريب فى أحشائه كأن شيئاً قد انفجر بداخلها هو يعلم جيداً أن صديقه

لايمكن أن يكذبه القول . . . فهذا الصديق بالذات ليس . . . أقرب أصدقائه إليه بل هو قبل هذا رجل مستقيم الشخصية لايميل إلى الهذر ولغو القول

لم يستمر الجدل داخله طويلاً . . . وبعد دقائق كان فى سيارته . . . يخرج من المدينة إلى الصحراء . . العلامات الضوئية على الطريق الأسود تومض متوهجة فى عينيه والعاس المبكر فى جفنه يبيض على يقظته وقدمه تضغط لا إرادياً على معدى الوقود فتمرق السيارة كالسهم دون أن يحس بأى فارق فى السرعة كان يريد أن يطير أن يصل إلى القرية قبل بزوغ الفجر

«لقد توافقت معلومات ممن أستمع جاءه من يهمس فى أذنه بإشارات عن علاقة تتوطد بينها وبين مدير شركة السياحة التى تعمل بها وعبر عن احتقاره لما سمعه بإلقائه على مسامعها مع ضحكة استبعاد ساخر الآن فقط يتذكر كيف تورد وجهها للحظة ثم متمع وكيف ارتعدت أرنبة أنفها . تصور ساعتها أنها انفعالات غضب واستنكار . . لآن يوقن أنها علامات ارتباك وبغتة هو ليس رجلاً مريضاً بالشك ولولا أن مكالمة الليلة جاءته من هذا الصديق بالذات لواصل نومه فى استرخاء تام . . . ولكن . . عليه الآن أن يعرف عن يقين»

استعرض مع امتداد الطريق قصته معها بكل التفاصيل . . . وضعها أمامه فى مرآة السيارة وراح يحاسبها يذكرها بما فعله من أجلها . . . وكيف رعاها ووقف بقوة إلى جانبها فى كل الأزمات

التى مرت بها . . . ويعيد على مسامعها كل ما قالته وهمست فى أذنه حتى تصور أنه امتلكها كما لم يمتلك رجل امرأة من قبل . . . ثم نحاها من عينيه وراح يجتر كل ما قرأه أو سمعه عن طبيعة حواء المتقلبة وأهوائها وجحودها استشاط غضباً وزاد ضغطه على قدمه اليمنى حتى سمع زئير المحرك . . .

سأل نفسه وهو يدير مقود السيارة إلى اليسار تاركاً مشارف الإسكندرية إلى يمينه وكانت العلامة البنفسجية الشفافة تطرح نفسها على المساحة الظاهرة من الربوة المطلة على البحر . .

ولم قبيل الفجر بالذات ؟ يمكنك أن تصل فى أى وقت . رد على نفسه . كلا . . فربما كانت تخطط للسفر إلى أسوان من الإسكندرية فجراً لتثبت وجودها هناك

وواصل السؤال وماذا تفعل إذا واجهتها؟ . أنت لاترتبط بها بغير رباط المشاعر والعواطف . . وواصل الرد . . . أريد أن أعرف فقط لأحرر نفسى

ووصل قبيل الفجر . . وربط بسيارته عند مدخل القرية وجلس ينتظر . لم يعرف أن النوم قد غلبه إلا حين لمسته تلك اليد فى كتفه تهزه ليستيقظ

فتح عينيه . . . وحملق فى الوجه الذى انحنى فوقه . . وتسمر ذاهلا . . . بينما هتف الآخر . .

- ماذا أتى بك إلى هنا؟

- انتظر . . ألم تتصل بى من القاهرة فى منتصف ليلة الأمس؟

- كيف وأنت تعلم أنى هنا منذ عشرة أيام ولمدة شهر كامل . . .

- إذا لم تكن أنت . . فمن يكون؟ . .

- ربما أراد أحدهم أن يداعبك

- ألم تر «س» هنا؟ . . .

بل سمعتها اتصلت بي هاتفياً من أسوان تشكوك إليّ . . . ويبدو لي أنها محقة

. . . في طريقهما إلى الفندق . . كان يفكر جديا في أنه لو نام ساعتين ثم سافر . . فإن يستطيع أن يصل إلى أسوان قبل الفجر

كلمات من دفتر قديم :

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه

وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا

«قيس بن الملوح»

أراني!

أراني وقد ولدت سحر ذلك اليوم فأخطو على جسر الاكتشاف وتبهر عيناي أضواء نجم قديم انفجر في السديم منذ قرون ولكنه مازال يومض نبضاً في رحم الكون يتهيأ لميلاد جديد .

وأراني نائماً في حضن ليلة قمراء . . . تهدهدني بين ذراعيّ حجر مظلل تصطبغ جبهته بدم قرمزي يكرس المولود الذي يدرج مدارج الشباب المبكر . . .

وأراني قد لهثت جرياً وتصببت عرقاً وأنا أصعد التل . . تمتلئ الأوردة والشرايين بدم رجولة طافحة يمكنها أن تحملني إلى القمة وعلى كاهلي أثقل الأحجار

أراني أتشبث بخيوط شمس غاربة تتألق في بوتقة الانصهار عند حافة الغسق . . يلتقي الساخن بالبارد فيتجمد ويتقلص

ويحول الجمرات إلى كرات من رماد مبتل ..

وأرى الدائرة مفتوحة .. لها طرفان ... لم تغلق بعد .. وكنت أحلم بصيرورة دائماً من خلال المساحة بين منحنى الدائرة حيث تلتحم النهاية الآفلة ببداية وليدة

أخشى ما أخشاه أن تتوقف الحركة المحتومة ولا تغلق الدائرة فحتماً سأسقط من أحد طرفيها

... أنا مصاب « بفوبيا » الخوف من السقوط ..

أحيانا أطل من شرفتى العاليه وما إن نظرت إلى أسفل حتى هاجمنى الدوار واخترقتنى رغبة مجنونة فى القفز إلى الشارع وفى اللحظة الأخيرة أتشبث بالسور الحديدى وأتراجع إلى الخلف حتى أسقط على ظهرى أكره الدوار والغثيان والامور الوسط والبين بين .

أنشد عالماً من الصدق وإن شوه الصدق كل الوجوه

أرنو إلى زمن قد لا يأتى ولكنه يتحقق فى احتمالات الإمكان ... لحظة شرود منفصلة عن حكم الوقت

زمن يحتفى بالذكرى السويه لا بقرص أحمر المخلوقات العليه التى أذابت شمع الأجنحة تحت الشمس فدقت أعناقها ..

أضع صورتى فى إطار على الحافة الرخامية للمدفأة فى الشتاء وأسقط عليها حزمة من ضوء أزرق .. ولكنى لا أنظر إليها .. فأنا أعرف الملامح وأملها وأحيانا أكرهها .

وعداً سأقيم حفلاً لإزاحة الستار عن تحفتى الكبرى .. أرى من الآن صوراً مستقبلية لنظرات العيون تلمع بالحسد .. وتأهدات الصدور وهى تنفث غلاً أرى ابتسامة وحيدة تتعمق وتطرب وتذرف دمع الانبهار ..

ستسعدك أنت حين أزيح الستار .. وتظل عيناكى لتضىء العش الليلى ..

أرانى هناك معلقاً بين جفنيك .. متوسداً وجنتيك .

أرى فى عينيك بارقاً من نور

أرانى فيك أرى أنت

أنظر فى المرآة .. أرى الدائرة .. يتحرك طرفاها ... يقتربان ... يلتقيان تنغلق الدائرة وأغلق عينى

كلمات من دفتر قديم

لتعرف كيف تحب يجب أن تعرف كيف تكره ...

فكراهية الشر .. تعلمنا حب الخير

غربة

اليوم عدت وحدي! .

لم يكن لدى متاع . وانمحت من ساعتي كل الأرقام وانكسرت العقارب

فقط . . كان المكان! تعرفينه

نفس الشرفة . نفس البحر ونفس الركن الذي شهد الأمسيات وأبلى خيوطه سحراً وأبهته عند طلوع النهار

هنا تحول الزمن إلى مكان . . . تشكلت الألوان على جدار اللحظة . . فحولتها إلى أثر من حجر منقوش وأبقتها وشماً لا تراه إلا عيناي! وكانت اللحظة قد أصبحت سفراً ملوناً بألوان الذكريات . .

سب الذكريات مدينتها فى القلب وجعلت للمدينة باباً يربض

أمامه أبو الهول بسؤاله الملغز وأسراره المطلسمة ولأنى صاحب السؤال فقط خطوت . ابتسم لى أبو الهول وألقى السؤال . . . وهو يأمر بفتح الأبواب . .

ولكنى نسيت الجواب . . .

لم أستطع دخول المدينة . . . ورحلت . كان الطريق طويلاً وكنت حافى القدمين أميال . وأميال ، من الصخر المسنون أنشبت مخالبها فى جسمى . فكتبت بالدم سطور غربتى

أفلتت الغربة من حساب الزمن فلم تنته تجسدت «مكاناً» فأصبحت فى العالم . أجوبه من أطرافه الأربع لأجده كما تركته! يئست من البحث عن نهاية كما نسيت البداية فدرت مع الدائرة . . واستسلمت لقدرى

رسمنى قدرى فارساً لعبرى السبيل! باركنى ولمس بسيفه كتفى وأمرنى :

- امض برياح والسؤال عن المصير! . .

لم أسأل . . ولم يكن رحيلى بحثاً عن مصير

كان بحثاً عن رفقة . . . عن دفء محبوس فى قلب وحيد . . .

عن زهرة تشق الصخر فى عرض الطريق .

والطريق يصعد إلى ذروة يغطيها الثلج وتعصف بها الرياح ولم يعد على كتفى دثار . . . وتمزق الثوب القديم

رثت غلالات الصيف وموسم الأمطار يحلق فى الأفق وقريباً يأتى . . ولم يعد لدىَّ ما أتخفى به عريى .

لم يبق غير الهزيمة . . فعابر السبيل لايملك سيفاً . . . والملاح الشارد أضاع سفينته! . . .

واليوم عدت وحدى! . أكفكف الدمع وألعق الجراح . . .

عدت ولاشيء يكفى غير قبض الريح وشار من غبار السفر .

لم تكونى هناك

فقط كان المكان . .

بالنظرة والهمسة يضج بالذكرى يمور بالحياة . يعود الزمن ليسكنه .

تعود اللحظة نبضاً فى الجماد

أراكى وأرى النجمات فى عينيك . وأسمعك ، فى القمرة والشحرور والكروان . .

أستعيد الرفقة الدافئة

لا أعبأ بالوهم . لا أخشى السراب .

أشعر تماما أننى لم أعد وحيدا . . . فالمكان «معى» . .

والمكان حقيقة . . .

وحيث يكون للمسافر مكان . . . لاتكون غربة .

كلمات من دفتر قديم :

الشجاعة بلا ذكــاء : حماقة

والذكاء بلا شجاعة : حكمة

«كونفو شيوس»

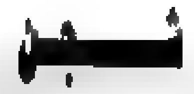

فى الصـيف كـان الغروب ظليـلاً . . رغم شـمس حزيران المتوهجة . وبقع الضوء والظل تتراص . . متناثرة على الممشى حيث كنا نسير بخطوات الدفء النشوانة . . إيقاعات الخطو تغنى ترقص . . تهزج على أوتار القيثار المشدود .

وكان العطر يتماوج فى نسمات كسول . . . يتثاقل يتلكأ . يتكثف نضج الزهور التى تفتحت فى ربيع سابق

لهثت الأحاسيس الخجلى . تقافز بعضها . تدفقت فى الشرايين رحيقاً من شهد وردى ارتشفناه قطرة قطرة جرعناه سيلاً . . . فاض من أشداقنا . . . بلل صدورنا . . . تبخر عليها . صعد رذاذا لزجاً . وتصبب فى سماء تموز . . . وسماء تموز لم تكن زرقاء . . .

. . . كانت ترتدى غلالة بوهة . . . . ترقد بهـ وسانة على حافة البحر .

وبحر تموز لم يكن أزرقا . . .

كان يعلو تيارات العمق فيلفظ رماله وأعشابه الطحلبية الحمراء . . .

لم يكن وحده ! العالم كله كان يفور . . كان يصيح . . ويعزف موسيقاه على آلات النفخ النحاسية يضبطها إيقاع أفريقي . . . أمازوني .

كان اللحن «خلاسياً» . . . كصرخة بحار زنجي يغني لغادة شقراء في حانة منسية على شطئ «الكاريبي»

كان موسماً للحب الساخن والأحلام المرسومة وشماً على السواعد والصدور . . كان حياة

تحبها . . تكرهها . . . تتناغم معها . . . أو تتنافر . . . لا فرق هناك لأنك تحياها

أحدثك أيها الهمس في صدري وقد أمسى «أيلول» يلملم آخر أنفاس الصيف . . . تاركاً على سور الشرفة زهرة ذابلة «خوف» وسلة كرم خاوية . . . وكأس به قطرة . . وقنديل به بقايا شمعة .

وقيثار وحيد الوتر

وهمسة «تشرين» تمس شغفك . .

لمسة من مخمل رمادي تهدهد مكمن دمع في الأحداق .

أصبحت لأهازيج الصيفية الصاخبة . . مجرد رجع للصدى . . . وقطرات الندى الدافئة ذرات ثلجية

أصبحت نقاءات الليالي بعضاً من ذكريات . . سطوراً من

حكايا بلل الدمع ورقاتها فانطمست الحروف وبهتت الكلمات . .

أقبل موسم البحث عن «سلوانة» . .

. . . لا نسيان ! . . .

البحر عاد أزرق . . . والسماء خلعت غلالات الضباب الحريرية .

لم يبق إلا الرماد . . . عيداناً من الظلال تتقاطع على الدرب مع خيوط المغيب

ورعشة خطوات وحيدة تدرج على الشرفة المهجورة

ورجفة دمع تهفو إلى لقاء

ودغدغة الحنين في قلب مرهق الصبوات . .

وعلى الوتر الباقي في القيثار . . تتلمس أصابعي أصداء الأغنية القديمة . . . يعمرني الحزن . . .

أعص بالأحزان . .

أبحث عن عود ثقاب .

أشعل العود الأخير . . أوقد بقايا الشمعة في القنديل . . أمسح بيدي تلك الدمعة حتى لا تطفئ ذبالة المصباح . .

كلمات من دفتر قديم :

الحقيقة تبدأ بحلم . . . والحلم يبدأ

بعيون مغمضة . . . لهذا فنحن نحلم

بالحقيقة ولا نراها!

طيف!*

اصفر الضوء للحظة ثم احمرّ .

توقفت السيارة على حافة الخط الأبيض . . . وانساب عبر التقاطع رتل من السيارات يتدافع أمام ناظريه . .

مال برأسه نحو زوجته دون أن ينظر إليها وهمهم بضيق :

ـ إشارة طويلة! لن نلحق بموعدنا . . .

وبنفس اللهجة الروتينية التي ظل يسمعها طوال زواجهما . همست!

ـ لاتقلق . . . سينتظروننا! . .

لم يعقب وشغل نفسه بتأمل المارة المهرولين في ممر المشاة . وفجأة تصلب في مكانه وقد انتبهت كل حواسه . . . إنه هو . .

ـ من ؟ . . . قالت الزوجة ! . .

ـ لا أحدا . أجاب هو . . . خشي أن تطارد السؤال ولكنها لم تهتم . . . وراح يتابع من رآه على الضفة الأخرى من الطريق . ولمحة وهو يدخل المقهى الكبير على ناحية التقاطع . . . تملكته رغبة قهرية في اللحاق به! . . . التفت لزوجته . . .

ـ أسرعي قبل النور الأخضر . . . وقودي أنت السيارة واذهبي إليهم . . . وسالحق بكم قبل موعد العشاء . .

وقبل أن تجد الفرصة للاحتجاج أو التساؤل فتح الباب المجاور وانزلق إلى الطريق! انبثق النور الأخضر . . . وتعالت خلفها صرخات أجهزة التنبيه من السيارات التي وقفت خلفها . كانت قد أتمت الوصول إلى مقعد القيادة . وانطلقت وهي تفرغ ضيقها وغيظها في كلمات لم يسمعها أحد

. . . عند النافذة العريضة بالمقهى وجده هناك . . . وحده .

اقترب منه حتى وقف عند حافة المائدة . . .

ـ أخيراً وجدتك! . . .

رفع الآخر رأسه وشمله بنظرة استغراب باردة :

ـ عفواً . . . أتعرفني؟

ـ لعلك لم تنس . أنا رفيق رحلتك بالقطار ذلك اليوم منذ خمسة أعوام . .

ـ آسف . . أراك تخلط بيني وبين شخص يشبهني . .

ـ كلا . . . أنت هو . . . صورتك المنطبعة في عيني لم تتغير . . .

قال مهونا عليه : ربما ولكني لا أتذكرا

جلس أمامه وراح يحدقه بتدقيق حاد

- إذاً سأذكرك! كنا نجلس متجاورين وجاء مفتش القطار - واكتشفت ساعتها أن حافظتي قد ضاعت مني وبها تذكرة الركوب وكل ما معي من نقود

- تحدث أمثال هذه المفارقات لأناس كثيرين . . .

- ولكنك تكرمت يومها فدفعت عني قيمة التذكرة والغرامة . .

- إذ فقد أتيت عملاً طيباً في حياتي المليئة بالأخطاء! . . . ولكني مع ذلك لا أذكرا

- محال فقد أعطيتك بطاقتي وظللنا نتجاذب الحديث طوال السفر! . .

- سيدي هناك دليل لا ينقض على أنك تحسبني شخصاً آخر . . . فأنا لا أحب السفر بالقطار ولم أركبه منذ كنت طفلاً!

أحس بالدماء تصعد إلى رأسه . واحتار بين إحساس بالخجل وإحساس آخر أكثر مرارة يوهمه بأن الرجل يسخر منه ليدينه . . . أو يعبث به . . .

أخرج من جيبه النقود وألقاها على المائدة

- أنا لا أشك لحظة في قوة ذاكرتي! وأياً كانت أسباب إنكارك فهاهي نقودك ولست مديناً لك بشيء

أنت رجل محبوبا

وأنت صفيق . .

- هاهي نقودك

أزاح الآخر النقود بحركة احتقار . . فسقطت على الأرض وفقد هو أعصابه . وهناك سألته زوجته : ماذا حدث لعينيك

رفض أن يجيب . . . ولم تكرر هي السؤال .

كلمات من دفتر قديم :

تصدق دموع المرأة إذا أحبت

ويكذب الرجل إذا أقسم لها . .

أنه يصدق هذه الدموع

كـذبة

نظرت إلى العلبة المغلفة بالورق المزركش . . . ثم إلى الرسالة المرفقة . . . وابتسمت لنفسها . . فقد ربحت الرهان . . .

كان الرهان بينها وبين صديقتها بالأمس . . . حين هرعت إليها تسرد لها وقائع اللقاء العاصف بينها وبينه . .

ـ لقد عرف كل شيء! . . لا أعرف من أخبره! . . توسلت إليه كي يخبرني ولكنه رفض واتهمني بأني أحاول أن أهرب من المواجهة إلى مسلك فرعية

ـ لعل الحق معه . . فليس المهم فعلاً من قال . . ولكن . . ماذا قيل! . .

ـ وهكذا كان . . . لقد عرف . . .

ـ كان غاضباً؟ . .

ـ كلا . . . ما به لم يكن غضباً . كان شيئاً رهيباً لا أجد كلمة تعبر عن حقيقته . . . كان انسحاقاً . . أو اشتعالاً بلا

لهب . . . أو نزيفاً لكل مظاهر الحياة . . أو لعله كل ذلك في حالة واحدة . . . ربما خيل إليك أنه قد انفجر ثائراً أو حطم الاقتراح أو صب على جام غضبه ولعناته! . .

ـ أو لم يفعل؟ . .

ـ ظل مكانه صامتاً . . . شاحباً . . لا ينبئ عما بداخله غير شعاع من بريق ينبعث من عينيه كومضة برق تخترق السحب الجاثمة في ليلة شتاء عاصفة . . وحققت أسأله عما به . وأتدعق أمامه قلقاً ولهفة . . وظل يرمقني بتلك النظرة التي تغوص في صدري كالسكين . . . وأخيراً . . تكلم . . خرج صوته برنينه الأجوف كمن يتحدث من بئر لا قرار له: «لماذا كذبت علي؟» . . ولحظتها سقطت كل أحجار الدنيا في أعماقي . . أدركت ألا جدوى من الإنكار . . وأنه قد عرف . . فقد كان ما عرفه مسطوراً في نظراته . . مرتجفاً مع ذبذبات صوته

ـ وماذا فعلت؟ . .

ـ وماذا كان بوسعي أن أفعل؟ . . انهرت باكية . . . كنت أعرف أن دموعي تجرده من كل أسلحته وتحول لحظات قوته إلى استسلام كامل . . ولكنه لم يعبأ . . ظل ينظر إلي بنفس الطريقة . . لم تزد في نظرته إلا التماعات ساخرة حولت دموعي إلى قطرات من ثلج . . جربت حيلتي الأخرى فثرت عليه وصارحته بأن ما كان في الماضي قبل أن أعرفه لا يخصه في شيء ولا يحق له أن يحاسبني عليه . .

ـ منطق لا مراء فيه . . . ولا بد أنه أقنعه؟ . .

ـ زادت قسوة السخرية في نظرته وقال: «لا يخصني ولا يحق لي

مطالبتك بحساب عنه .. ولكن لابد أن أعرفه ومنك لأن ماضيكي جزء منك مثل حاضرك ... ومن حقى أن أعرفك كاملة ... فلست أحب نصفك دون النصف الآخر! ..

- وهذا أيضاً منطق! .

ولكنى نهضت غاضبة وتركته بعد أن أعلنته أننى أرفض شكه واعتبره إهانة لاتغتفر ..

- لقد أخطأت ... وأعتقد أنك قد فقدته؟!

- بل فعلت الصواب ... فأنا أعرف قدر حبه لى ... وأعرف أسلوبه فى استرضائى ... وسترين ... سيرسل لى هديه .. ورسالة اعتذار

أمام صديقتها وبنشوة الانتصار فضت غلاف العلبة ومظروف الرسالة أما العلبة فقد كانت تحوى وردة حمراء وفى الرسالة ... كلمات قليله

«كيف احمرت الوردة؟ .. وداعاً ...»

عرفت فيما بعد أن الورد كان كله أبيض اللون .. وأحب البلبل وردة .. أشفق عليها من الذبول فى ليل الشتاء البارد فضمها بين جناحيه .. فغرست أشواكها فى جسمه حتى امتصت كل دمائه لتنعشها .. وفى الصباح .. كانت الوردة حمراء وكان البلبل صريعاً ..! ... هكذا احمرت الوردة .. ومات الحب .

كلمات من دفتر قديم :

« لا تقاتل معارك الآخرين وغريمك ينتظر أمام بيتك»

«كونفوشيوس»

عصفور!

رآه لأول مرة ذات مساء ..

كان الكون قد غرق فى التماعة الرماد الخادعة! .. بدا كشبح لفته الأمواج .. من جوف أسطورة منسية غرقت فى لجة قديمة! .

توقف عند السور الحجرى وراح يحملق فيه .. كان يتراقص عند مرمى الأمواج .. طيفاً شفاف ... كان يرى من خلاله مياه البحر تتلألأ وتنثر حولها دوائر الفضة المتوترة تحت أشعة الشمس الغاربه .

فرك عينيه (ربما كان وهماً ... أو شيئاً كالسراب) أحس بحتمية نفسية تدفعه لأن يقترب ... فاقترب ... ولكنه جرى هارباً .. لم يختف .. كان طيفه يعدو فوق الرمال المبتلة ويترك آثار أقدامه الحافية لتتجمع فيها مياه الموجة الراجعة ..

ربما يخيل إليه .. فالوحدة .. والأحزان ... تخلق أنواعاً من المرئيات قد «لاتصدق» ولكنها «ترى»! ..

عاد من حيث أتى . . . وانكب على ليلته يراوغ ذكرياته ويحاول أن يدفنها في عمق الفراغ . . . وبينما كان يمارس لعبته سمع الدقات قريبه على زجاج الشرفة المجاورة . . . والتفت . . . كانتا هناك . . .

عينان تلمعان في الظلمة الساجية كقطعتي ماس تبرقان عبر اتساع محجريهما بنظرة ماجنة . . . وتحتهما تلك الأنف الأفطس الذي ضاع من ذاكرته كما ضاعت كل ملامح الماضي وتحته كانت شفتان منفرجتان عن ابتسامة! لا . بل ضحكة تملأ الأشداق . . . وإيماءة من رأس نحيل يعلوه ويحيطه شعر غزير

هرع للأبواب يفتحها لكن الطيف كان يجرى . ويشير له ليتبعه

على الرمال مرة أخرى . . . وفي ضوء قمر مكتمس . راح يواصل رقصته . . . وفي يده هذه المرة مزمار ينفخ فيه .

تخرج تلك الأنغام لتحمله إلى بلد بعيد . . . بلد كان كثيرا ما يراود أحلامه حين كان طفلاً . . (ساحرات الغابة القصيرات يلبسن طراطير مطرزة بالنجوم ويحملن وجوه أطفال مكتنزة تضحك في براءة حنون) . .

ارتجف نشوة عارمة تخللت مسام جسده فاستلقى متمدداً على الرمال وراح يتابع بلهفة عرض شبحه الراقص . . وتناهت إلى سمعه نبرات أمه تقص عليه حكايات الأميرات والشطار وتمد يدها الباردة على جبينه الملتهب . .

- قم يا ولدى كي تلحق بالعرس الموعود ! . .

تكسرت الرؤى تحت أجفانه المطبقة وانتظمت أنفاسه . و . . . في الصبح أيقظته أشعة شمس تدغدغ عينيه . . . ففتحهما ليرى الشاطئ كما كان . خالياً تصفر في فضائه ريح خريفية عابثة . . .

تلفت يبحث عنه . ولكنه لم يكن هناك . . ولأول وهلة تصور أنه كان يحلم

فكرة الحلم تبدو نبيلة . بل كاذب مستحيلة . . . فقد وجد على الرمال بجواره ذلك المزمار مد أصابع ترعشها الرهبة . . لمس الجسم الأسطوري النحيل كان المدى أو رذاذ الموج يبلله وبرفق أمسك به تأمله أداره بين أصابعه . . ثم رفعه إلى شفتيه . .

تنفس بعمق ثم رد زفيره إلى المزمار . . . لم يسمع شيئاً . . .

ظل طوال يومه يحاول أن ينطق المزمار . ولم يفلح . .

فقط حين مالت الشمس ثم سقطت خلف الأفق . . خرجت نغمة طويلة حزينة . . . طفرت الدموع من عينيه . . .

وغشيت عينيه غلالة تترجرج .

ومن خلالها عاد الشبح . . يتقافز فوق الأمواج . . . ويمد إليه يديه . .

ألقى نحوه بالمزمار . فالتقطه . . . وضعه بين شفتيه تحولتا إلى منقار . . رفرف بذراعيه . تحولتا الى جناحين . . . وعبر كتفه حد العصفور . . .

عائدة

من نافذة الصدفة جاءت .. أطلت .. في أحضانها يبزغ قمر صيفي .. على جبينها تبرق نجمات فجرية ... وفي شعرها يتدفق نهر ليلي

همس الصوت بداخلي : ها قد عادت .. !

أسكتُ الصوت بنبرة احتجاج .

- العائد كي يعود .. يجب أولاً أن يذهب! .. وهي لم تذهب ... لم تكن قبل اللحظة!

ونظرت إليها ... كأني أنظر للمرة الألف ... كأني أبحرت بزورقي في هذا البحر طوال العمر ..

عيناها بحر حنان صاخب! وفي أعماقها طفل يبحث عن صدفة .. يغوص حتى القاع ... يبحث في رمل الأغوار والصدفة يحملها التيار.

لؤلؤتي سر في صدر الأقدار! صاحت مني يوماً حين لهوت بتقطيع زجاج هشة!

لم أعرف أن اللؤلؤ يسكن في الأعماق .. وأن الشطآن المهجورة لا تحمل غير بقايا العشاق!

والعشق غيمة أيامي! ...

أيامي طافت بكل فيافي الأرض المجهولة عاشت كل حكايا الأمس .. رشفت كل كنوس الصبر .. غزلت كل شباك الصيد .. لكنها لم تعثر يوماً على لؤلؤتي المفقودة

... ها قد عادت ...

همس الصوت! ..

عزفت في الآفاق البعيدة أوتاره فثار أرغن .. من كل زوايا الكون هتفت أصوات «الكورال» .

ها قد عادت ... ها قد عادت ...

حدثني الهاتف في صدري : لمن هي عائدة؟

عائدة لي! ..

صرخت بها فترددت الأصداء كطبول الحرب! ..

ليست حرباً يا أسرتي! .. ليست إلا ضربات القلب! تخفق .. تخلق ألف حياة .. تنبت في الأرض العطشى عوداً من ريحان أخضر .. يزهر في ظلمات الليل ... يثمر لؤلؤة بيضاء ..

يشرق فوق البحر نهار . تشهده عند السور لأزرق . تملأ بالكفين شعاع الشمس الخجلى ذات صباح تحمل وجهينا .

لكن السفن المارة تطلق صفارات الرحيل بفزعى الصوت . . . أدفن رأسى فى خصلات الشعر . . .

تهمس فى أذنى : سأعود .

أمسك بصحيفتى الصباحية . . . أقرأ طالعى

نجوم اليوم تقول . . . اليوم فراق . . .

اليوم رحيل قد سطر فى الأفلاك . . .

وعدٌ تتوارى لؤلؤتك فى صدفة . الصدفة ترحل تغتسل بماء الأعماق ثم تعود . تطرحها لأمواج بين يديك . تسألك كلمات السر . . . أعرفها

أهمس فى أذن البحر . بالاسم المسحور . ينهزم الطلسم . . .

أكتب على الرمال طالعى . .

أنا أنتظر . . . وهى عائدة!

كلمات من يوميات قديمة :

يا لائمى فى هواه والهوى قدر

لو شفك الوجد لم تعزل ولم تلم

«أحمد شوقى»

وعد!

أكان وعداً؟ .

أم كان بعضاً من سراب؟

يوهم الصادى نفسه بأن الصحراء قد هطلت بها الأمطار فأينعت قفارها وارتوت رمالها من قطر الحياة فاخضرت وأنبتت زهورها وتلوح له جنة موعودة تبدى مفاتنها وتدعو الظامئ كى يروى غلته . . والجائع كى يقيم أوده . . والتائه الرحال كى يلقى عصاه . . . ويجرى الواهم إلى جنته . . .

تتدفق فى شرايينه دماء الأمل البارق فى بلدى . . . فينضو عنه أكفان يأسه ليولد من جديد ويحبو بقوة الميلاد إلى درب الفردوس الماثل عند الأفق! . .

. . يحبو ولا يصل . . . يدعو ولا يجاب . . وتظل الرحلة بلا

نهـايه . كـحكايه المهد تبدأ فى ليله وتتكرر كل ليلة أو كحكايا شهرزاد . . . تحول من خيوط خيوط لتتصل عبر ألف ليلة . . أو ألف عام . تنسج أحلام السندباد وأساطير العشاق والندمان فى ليالى بغداد . . .

تلك كانت رحلتى . . . وكنت أنت الميعاد .

كأنما عشت عمرى أبحث عنك فى صحراء . حين يشق بى المسير وأجثو على رمال الجمر وأكاد أسلم رأسى لمصدر الأقدار الصحرية وأغمض عينىّ على ملح الانتظار تبرق بين أهدابى لمعة السراب

وكنت أنت هناك . . جنة الوهم الجميل

جئت فى لحظة اليأس على صفحة لنبل قدرى أفلت من حساب الزمن الصارم وأنبت لى فى قلب الفجر رقعة بيضاء . .

رأيتها ذات صباح تترصد حلمى عند السور فصفقت الصحراء .

. أينعت الواحة حولى وتدفق فيها نهر صباه . . ألقيت بحلمى المكدود على صدرك . . . هدهدت سنين العمر الضائع على مرجك . .

وبين يديك نثرت همومى المخبوءة فى صدرى . . . شيئاً من قلب لم يعرف يوماً قبل اليوم - كيف يكون العشق مصيراً . . . قدراً أو سطراً يختتم كل سطور العمر! .

مددت يدى . . فتحت كفى . . . طلبت من العرافة أن تقرأ . . .

قالت كفك لايقرأ . . . لكنى أقرأ عينيك . . .

فى قلب النظرة تقطن صاحبة الوعد قد تعطى الجنة لو شاءت . . أو تعطى الوهم .

أغمض عينيك طويلاً واحلم بالفردوس!

أطبقت جفونى . . وكنت هناك . . . .

أعرف تلك البسمة على شفتيك . أقرأها كل يوم لعرافة .

واسمع تلك الكلمات .

- كم من أعوامك عشت طريد الفردوس المفقود؟ . .

قلت ثلاثاً . .

قالت بكم .

قلت كثيراً

قالت تهرب

قلت لعلى لا أعرف!

قالت تعرف . . .

. . . . . .

هى لم تعرف أن وعوداً قد يطلب للظامئ والجائع والتائه فى البيداء . ليس لكى تتحقق ولكن فقط لكى يواصل المسير

كلمات من دفتر قديم :

سألنى : المرأة متى تحب؟

أجبته . حين لاتجد ما تفعله!

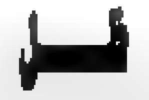

رأيته ولم أره . . . وكان حتماً أن أراه . . .

فقد كان توأم تلك اللحظة حين دقت أجراس الموعد والتقينا على الأعتاب . . .

كان معك . . . كان خلفك . . . كان ظلك! . .

كان أول ما رأيت ولم أر فيه سواك

خلف كتفك كان هناك . . يرنو إليّ بنظرة ساحرة . . . يتحدى . . . ملتقى بسؤال .

كنت أعرف السؤال . . . وأخشى الجواب! فالأمر يبقى دائماً حين تظل الأسئلة بلا إجابات!

واليأس يطل حين نعرف النهايات! . .

لكن سؤال الظل كان يبحث عن بداية . ربما لأنه يعرف ما هو آت . . . وربما لأنه يحطو على أرض بلا مسافات وربما وربما

يقين الحب يساوى كل الاحتمالات! والظل تخالطه الأشياء

لم أعرف أيكما الظل وأيكما القابض على كنه الجوهر والمتحول في الأشياء . .

لم أسأل ولعلى أفعل بعد فوات الوقت . . . فأخطو فوق خطوط الحذر الحمراء . . .

وتلك خطوط تعرفني . . تعرف خطوة أقدامي . تعشقها تلثمها

وأنا أرسف في الأغلال العمياء . . أعشق حتى عشاقي . . لا أبدم لحظة . . . لا أنظر خلفي . لا أبكي على اللبن المسكوب . . . لا أرثي فردوسي الضائع .

أقبل كل الأخطار أدفع جزية ما أختار

أشرع صدري للأقدار . أحمل تبعة أخطائي .

قد تلدغني لدغة عقرب . . أو تلفحني هبة نار . قد يرهقني طول السير . .

لكني لا أطلب عفواً . . . لا أتلو ورد استغفاري . . .

لن أسأل ظلك ماذا يقول!! فأنا أعرف!

أعرف أن الماضي يكبح خطو الحاضر . . . يلقي فوق الدرب بكل الأحجار . .

يرمي ظلال الليل القاتم فوق شعاع الشمس القادم . ذات نهار

يرجو لو يغمض عيني . .

أو يسدل حول القلب ستار . .

لكنى أركل كل الأحجار   وأمدّ يدى لأمزق كل الأستار . . .

لن أعطى ظلك عيناى .

هما لا يريان سوى عينك   وعيناكِ ليست أعينا الظل . .

عيناكِ طريق . . . أرحل عبره صوب المرفأ . .

والمرفأ يحتضن الزورق   يغسله تحت الأمطار . . يرسم فوق الدفة نجمة .   يرشق بالصارى زهرة   يكسر فوق شراعيه سفينة عطر . . . وللبحر . . .

فالبحر حفى بالعشاق! .   يحمل فوق الموج سفينا للأشواق . . . يرحل حتى يرسو فى الجزر المهجوره .

لكن البحر وليد يقتات على الأحلام   يوسعها سحر الشد . . . ينسيها خوف الأنواء

البحر يقين يكره ظل الشك .

يكره أى ظلال   يعطى سر شواطئه المسحورة للنسيان

فلتنسى . . .

فلتنسى حكايا الأمس

ولنخطو نحو المرفأ . . . ننتظر الإبحار

كلمات من دفتر قديم :

التفاحة كشفت لإسحق نيوتن الجاذبية الأرضية

وكشفت لآدم جاذبية من نوع آخر

فماهى؟

حوار

كأن عيون الدهر قد أغمضت لحظة من زمان   ! وكأن الزمن نفسه قد أراح رأسه إلى صدر ساعاته الوسنانة

كانت غفلة . . . أو كانت حلماً تجسد فى غفوة

أعرف أننى لم أكن نائماً   . ولكننى ربما كنت أحلم   أو لعلى لم أفهم لغة ما رأت عيناى .   . فقد رأيتها   . . كانت هناك . .

عند منحنى الطريق الدائر حول البحر   حيث تراجعت الشمس فى ومضة برق لم تجهضها شمس النهار . . . وانعكست ألوان الشفق الوردية على الجبين الأسمر   لتمتزج الحنطة الذهبية بدرب شراب الورد القرمزى   لون عرفته واصطبغت به سنوات فجرى القديم . .

اختلجت فى الصدر رفة جناح   وخفقة جرح لم تقو عليه الأيام . .

مازال الجرح طفلاً يلهو بقطرات الدم ويرسم يده على جدار القلب سهما يخترق الشغاف .. وقادتني الخطى كأسير حرب لايملك الطريق ... ولايختار الاتجاه ...

كنت أخشى الاقتراب! فاقتربت! ..

صار البعد خطوة ... ربما لم تكن كافية لتنتزعها من رحلة شاردة في عمق البحر ...

لم تلتفت حتى همست باسمها ... أيقظها صوتي المرتجف بذبذبات طالما تهدهدت في أذنيها فدرت نحوي وهي تهمس باسمي قبل أن تراني ..

(روت شهرزاد في ليلة من ألف ليلة ، وحين نظرت إليه ونظر إليها أورثته النظرة ألف حسرة)

وما كان بي حين نظرت إلى تلك الحسرة . فلم تكن النظرة نظرة

كانت ذلك النبع الأخضر الذي اشتعل ربيعاً فأنضج مواسم العشق في بيادر الصبا . وصهر السهام على حروف اسمها ليدمغ بيسمها جبين العمر .

وعلى جبيني قرأت الحروف ... فافتر ثغرها بكرزتيه عن بسمة حواء المنتشية .. وزغردت نبرات صوتها .

ـ كيف جمعت بك خيول الأيام؟ ..

ـ وكيف احتفلت أنت السنين؟ ..

ـ لعلك تراني بعيون الأمس البعيد !

ـ وهل تريني أنت بنفس العيون؟ ..

ـ عرفت صوتك أولاً ...

ـ كأنك لم تريني!

ـ أنا لا أرى سواك وأعرف يوماً بعد يوم بل أعرف كل يوم .. ماذا أضاف الزمن إليك ... لما أراك كما أنت اليوم وكأن الدهر لم يفصل بيننا وكأني لم أبرح تلك اللحظة التي جمعتنا .. هنا أنا فماذا عنك؟

نكست رأسي ولم أجد ما أقول

تسمت حمرة الشفق ... وأطل علينا المساء ... وانسكبت خضرة عينيها على رماد البحر

وتماوجت سمرة الذهب على جبينها الذي بلله رذاذ الزبد

ومددت يدي أمسح ذرات الملح

مست أناملي خصلات الكستناء تعابثها الريح ... فالتقيت عينيها السؤال .

ـ لعلك حلم!

وهل كنت يوماً غير ذاك؟

ـ كأنك صنيعة وهمي؟

ـ وبغير وهمك لا أكون .

أثقل الكرى جفنا شهريار . فأطبق عينيه على الحلم حيث واصلت شهرزاد أوهامها المحكية

كلمات من دفتر قديم :

يكذب الرجل أحيانا ليتخلص من مأزق

وتكذب المرأة دائما لكي تقع في نفس المأزق .

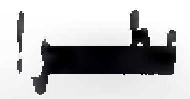

نسينا لحظة!

أملت بنا الجدر! أرحنا رأسينا إلى كتف الحلم الوسنان لم نسمع دقة الساعة . . . لم نر الضوء الأحمر! . . .

علمتنا الأماني فعبرنا عبر الأسوار إلى الأرض المحرمة . . . لم نقرأ تلك الكلمات المسطورة فوق الأبواب «لايدخلها إلا الغافلون»

وقد عبرنا أطبقنا الجفون على رؤيا عصر لم يوجد وتهويمة أسمار عاقر . لم تنجب يوماً أو ليلة . لم تكتب سطراً أو كلمة . .

غنينا لزمان الصمم . . . ورسمنا لوحات للعميان!

ونسيت لحظة . . .

لا أكثر أبداً من لحظة . واللحظة كانت حبلى بالسنوات!

كانت تختزل المأساة . تنفجر اللحظة ذات مساء . فتضيء الليل بألوان الفجر الموعود . . . تطويها غلالات الوهم الراقص حول المصباح . . .

في الرقصة نرحل عبر الآفاق! نهفو لزمان آخر . . . نرنو لصباح . .

ننسى الأغلال المرصودة نعمل في سر الطلسم تتعلق بجناح العنقاء . . . ونحلق .

نعلو فوق غمام الأيام الموهومة . . . فوق دروب العمر الحجرية! نسبح في الأجواز المسحورة

نبني قصراً للأشواق نسكنه لحظة . . .

لا أكثر أبداً من لحظة

فالعصر مجرد أرجوحة تترنح على جرف سحابة تتعلق بشعاع هارب والشمس تلملم دفء اليوم . . . تسقط قصر الأوهام . كالنورس يهبط من حالق . يتردى بجناح مكسور . . . يرتطم بقارب . .

القارب يبحر في لجة ليل . . .

والليل جزيرة نسيان مرفؤها يغرق في تيه اللحظة .

في نفس اللحظة يطلع ذاك الفجر . . كمنار مكسور المرآة .

لايعكس ضوءاً . . . لايهدي القارب . . .

فالفجر لأنا في غفلة ـ فجر كاذب . .

وتمر اللحظة . . . تفجؤنا شمس مشرقة! تغرس في أعينا اليقظة تعرف أن اللحظة كانت لحظة . . .

لا أكثر أبداً من لحظة

كانت غفوة . . أو بعض سراب! . .

وسنقنع من وهم حتيمتنا بذيول إياب . . .

فنتجمع أشلاء اللحظة . . .

قطعة حلم بجوار القطعة . .

ولنصنع منها تذكاراً . . . كزهور جافة تودعها صفحات كتاب . .

وحين نغرق في بئر الوحدة . . . سنرجع ذات اللحظة . .

ذات الزهرة . .

تتنسم عطر الأحلام

تقرأ سطراً . . . من سفر النسيان . . . يتحدث عن عمر ضاع . . .

في لحظة .

كلمات من دفتر قديم

الحب ما منع الكلام الألسنا

وألذ شكوى عاشق ما أعلنا

« أبو الطيب المتنبي »

رماد!

سرت لا أريد غير بقية الطريق! يصاحبني حماسي العنيد بأنني قد قطعت الكثير ولم يبق إلا اليسير . . فكلما تقدمت خطوة ألقيت بنظرة إلى الخلف لأرى الركام .

تلال من الأيام والأعوام وأوراق الشجر الذابلة . . وآثار خطواتي تحفر في الأرض مضرب الدروب . .

ودروب الأمس تملؤها أوراق الذكرى . . عند كل زاوية . . عند كل منحنى . . وشمت أقداري ورقاً . . عليها سطر من أسمار العمر . . والسطر يثرثر عن حلم قد كان . . قد كان

تضجرني فعل «الكينونة» إذ يتعثر في أسمال الماضي يصبح «شحاذاً» يتسول بعض حقيقة . . يبحث عن مرآة مشروخة! . . ومرايا القلب تغطيها أحزان صماء لا تنبس لا تصدر آهة

تتعلق عيناى بسطر لم يكتب بعد يتحدث عما «سوف يكون» ...

ينهرني فص «الكينونة» إذ يتعلق بالآتي بعد الليل يبدو بشيراً للفجر الموعود يصبح مثل سوءة . تطرحها الشمس على الآكام الجرداء . تزرع أمنية الأيام النضرة ..

في اللحظة أدركت الفكرة!! ..

الفكرة يا أختاه أن رماد «الفعل» يغطي أعمال الأحلام .. يطمس أشجار حب بلون ممعر .. يحيل ربيع العمر شتاء يتكدس تحت الأقدام ... يملأ أيدينا ... يفعم صدا الأعين والأفواه

ذلك أن كلينا لم يقو على النسيان .. فالإنسان مخلوق «يذكر» .

مخلوق ينسج حلماً من غزل الماضي كي يوهم نفسه بالميلاد . فيدق بجوف الليل الأجراس تبشر فأن نهار . أن اليوم وليد!

وعند حقول القيظ أصيلاً تستعد أفئدة الأطفال سبيل القطرات الشمعية من وجه عجوز تمحي التجاعيد دموعه تكشف للواهم أن الوجه الأمرد قشرة تخفي وجهاً حجرياً نقشته يداه برموز في لغة القدماء ... تلك هي الفكرة ...

والفكرة تبدو يا أختاه ... بعضاً من تهويمات حمقاء ...

فالفارس قد أعياه طريق الشوك فألقى بجوار أيكة «سدر»

يبحث عن لحظة ظل ... أو شربة ماء ..

أخذته بعد هنيهة سنة من نوم ..

أغفى وقد راح يطارد بعضاً من أحلام صباه

كان وحيداً ... لا يشاركه في الأيكة غير رؤاه ... وهناك رآها

وإليها كان يمد يديه ..

تلمس وجهاً نورانياً يشرق من حضن الآلام ..

تسمع صوتاً ينبعث من غمر الصمت ..

فلتمسح عن مرآتك كل رماد .. وانظر حتى تعرف قسماتك

راح يكفكف بيديه بريح غبار العمر

وفي المرآة ... كان هناك ...

طفلاً قد عاد

طفلاً تلقمه الدنيا ... قطرات من ضرع رمادا!

كلمات من دفتر قديم :

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصموا

«أبو الطيب المتنبي»

سهر!

في ليلي أكتب أشعري وأنثر فوق الأوراق بعضاً من حكاياتي! وأغني وحدي

لكني أجمع سمّاري وعد الرح لندماني! . تأتيني الرجفة من فيض الذكرى . وتؤنسني عرائس أحلامي . . . لا أبقى وحدي!

أسدل أستاري في الليل الشاتي! أبحث عن دفء محبوب . أسمع صوت حفيف الأوراق خارج نافذتي مازالت تلفح عنها الريح المثلوجة . . تغسلها قطرات الأمطار . تجلوها للفجر الآتي .

أشعل في مدفأتي النار . . . أشرد في وهج الجمرات أسترجع قصة حب منسية تتشكل من شرر اللهب الراقص بعض ملامحها . . أتذكر وجهاً يتألق في زمن صبي .

وضفيرة شعر تتعافر فوق الأكتاف وحقيبة درس يصحبها دوما الحلم إلى الأحضان .

يأتي «نيسان» . وأزيح ستار الفصل «المقرور» . أفتح نافذتي تتسلل نفثات زهرية أنفاس ربيع مولود أغترف بملء يديّ وأمسح وجهي . . . أغمض عينيّ أسترجع تلك اللحظات . . لحظات القلب الراجف عند اللمسة . . حين تداعبه نظرات الحب الأول

أرنو لزهرة عند السور . تتمايل تحت رفيف نسيم ليلي تذكرني بعينيه

كم كانت تحمل من أحزان من أشجان كم لمعت بالدمع الأحمر كالمرجان . . . كم كان . . وكان .

لو كنا نعلم أن الفصل يتيم لا يأتي كل عام

وأن الشمس إذا طلعت لا تخطئ عدّ الأيام . . لو كنا . .

أكره نص الشرط . أفتح أوراق الذكرى . . يطالعني نفس الخط .

كانت تكتب . كانت ترسم . كانت تمشي لو لم يأت فراق

أطوي الأوراق .

أودعها أدراج الصيف تتمدد كل الكلمات تستلقي فوق رمال الشط . تتعانق ألوان الطيف تتسل لونا لا يشبه كل الألوان يتوهج في «الليل» الصيفيّ ينعكس بريقاً يتحاسب على خد أبنوسي يلتهب بدفء مداري يحتمل بالأمطار في خط الاستواء

تتكاثف أبخرة الغياب ... يتضوع عطراً وحشياً من أجساد تتراقص حول خراب .. والحلقة تسفر عن تلك السمراء .. يعتر الشعر المكتنز ببقايا شراب .. يتساقط في قطرات أجمعها في كمي ... أنثرها فوق الصفحات ..

تروى أحداث الفصل الحار .. تنثرها كلمات من «أيلول» ..

فاقد أتبين رداء الحزن ..

تثقبه خطوات الذكرى .. كمرابى يجمع ما أعطى ..

يجس صوتي محنى الظهر ... يرمقنى في صمت ... أبادله بعض الكلمات ...

أساومه كي يمهلني ليلة ...

يمهلني حتى الفجر

أسأله كي نمضى الوقت ..

ماذا تلعب؟ ..

يخرج من طي ثيابه أوراق اللعب ... يعطيني ورقة أقلبها .. أقرأ ما فيها ..

موعدنا الفجر!

كلمات من دفتر قديم :

الذكريات تعبير مهذب يعنى

فى الغالب «صحيفة سوابق»

جافة

بالأمس!

بالأمس رأيته!

لم يكن شبحاً من الماضي! ... كان هو نفسه ... صديقي الذي فقدته من دهر طويل ...

لا أذكر على وجه الدقة كم مرّ من السنين ... أذكر فقط ذلك اليوم الذي التقينا فيه لآخر مرة ..

كنت أجلس على المقهى العتيد الذي شهد سنوات الرفقة والصداقة ومنابع الطموح

جاء يسرع الخطى لاهثاً ... وبادرني وأنفاسه المبهورة تلفح وجهي ..

ـ أخيراً وجدتها!

كانت عيناه تلمعان ببريق لم أعهده فيهما من قبل! ...

ـ من هي؟ ..

رقّ صوته وارتجفت نبرته وبدا كما لو كان يغنى

- حلم العمر ياصديقى! لن أصفه لك لأنى لا أجد غير تلك الأوصاف التى لاكتها الألسن وبرمت بها الأقلام واستهلكتها قصائد الشعراء وكلها لاتنبئ عن احقيقه وراح يومها يتحدث عنها طوال ساعات كان قلبه يرقص على لسانه ويتأرجح بين شفتيه متى أشفقت عليه!

كنت أعرف مدى ما يتمتع به من بساطة ومن يعلف نظرته للحياة من براءة . . . وخشيت أن يندفع وراء مشاعره العفوية فيرتطم بصخر الواقع الذى يملأ الطريق دون أن يراه فهمست له أن يعيش التجربة بخطو وئيد ويتحسس الدرب حذراً متمهلاً . . .

وفوجئت به يبتسم فى وجهى وهو يرد بثقة

- قلبى يصدقنى دائماً . . . وسأتبعه! . . غداً أتقدم إليها

ساورنى الفرح! توسلت إليه أن يتأنى . . . أن يفكر . . أن يعطيك فرصة لكى يراها ويبحث ظروفها ويتعرف إلى ماضيها فأجابنى غير مكترث

- أخطبها أولاً ثم أترك لكم بعدها أن تنقبوا وتبحثوا كما يحلو لكم!

ومضى

انتظرناه فى اليوم التالى . . . ثم فى اليوم الثالث . . . ثم أيام أخرى كثيرة

لم يأت . . . ولم نسمع عنه

اندفعت أبحث عنه . . . واكتشفت أنه قد ترك مسكنه

واستقال من عمله . . . واختفى . . عشرون عاماً كاملة . . نسيناه ثم نسينا أنفسنا حتى فوجئت به بالأمس . .

أمام أحد الفنادق الكبرى حيث كنت مدعو لحفل زفاف - توقفت سيارة فارهة وهبط منها . . . ولولا أن هتف بى منادياً لما عرفته . .

رأيت رجلاً فخماً بين أصابعه المرصعة بخواتم الماس يرقد سيجار كوبى هائل ومعه امرأة لاتقل فخامة . . وشابين فارعين

عانقنى ثم قدمنى لهم كصديق قديم . . . وقدمهم لى

- زوجتى . . . حلم العمر الذى حدثتك عنه آخر مرة . . .

غمزنى بركن عينه واستطرد مكملاً . . .

- ابنها الأكبر . . مهندس . . وهذا الأصغر . . . طبيب

- أولادك؟ . .

- كلا . . أنهما ولداها من زواج سابق . .

بغمزة أخرى انحنى ليهمس فى أذنى .

- كنت تريد منى أن أتروى وأفكر وأنتظر تحرياتكم ما رأيك؟ . .

ضحكة غليظة مازالت تدق أذنى منذ الأمس . .

. . آه . . ياله من صديق فقدناه بسبب خشيتنا عليه!

وياله من أذكياء . ومحنكين . . . وعباقرة!

كلمات من دفتر قديم

الماضى كالكرة . . يبتعد عنك

بقدر ما تركله!

مطـر !

لم تكن رحلته الأولى إلى باريس ولم يكن هناك ما يبعث على جديد . . . فقد أصبح افتتانه بالساحرة العجوز التي لاتهرم أبدا مجرد عادة

أجل ! تعود أن يأتي ويترك نفسه للمدينة . . . تأخذ يده وتقوده إلى حيث تريد . . ولم يسأل مرة . إلى أين . فكل خطوة تؤدي إلى متعة وتفتح بابا من أبواب الأسرار . . .

وهكذا ترك نفسه هذه المرة أيضا وبحكم العادة . .

كان المطر ينصل في رذاذ مستمر . دفقات ربيعية تربت بالدفء والشجن على صدره المكدود تنسيه كل ما ترك وراءه في الوطن ! . . وقد ترك أشياء كثيرة ولكنه لم يترك الوطن . . كان يحمله معه أنى تسير به قدماه وهاهو يتأمل الوجوه على رصيف الشانزليزيه . . حيث تعود أن يحشر دائماً برفيق من مواطنيه . . وجوه كثيرة شرقية السمات . . ولكنه من باب

المتحرز ينتظر أن يسمع اللغة واللهجة وبينما تدور عيناه . . يكملان رحلة البحث توقفتا بهزة المفاجأة ليرها .

واحس لأول مرة بكلمة المستحيل تتجسد أمامه . كانت من لحم ودم . . . .

إنها هي . . . لاتوجد ذرة شك واحدة ! . . ولكن

الأمر يتعدى المفاجأة والدهشة ليقفز إلى تخوم الجنون واللامنطق

ثلاثون عاماً . . . طويلة . . . حافلة . . . مرت ويتمنى أن يراها مرة أخرى . . . حاول بكل ما تتيحه قدرة البشر . جرب كل الوسائل . . وسار على كل الطرق وجرى خلف كل الرموز التي يحفل بها قانون الاحتمالات ! . . . لم ينجح

وحين أسلمه لليأس احترقه ببارق ضعيف من أمل فقد بقيت الصدفة .

ولكن الصدفة تأخرت ثلاثين عاما حتى تجسدت أمامه على رصيف مقهى في باريس .

هاهي ماثلة أمامه تماما كما كانت آخر مرة . .

نفس اللهيب الأخضر يشتعل في سمرة خمطة ! والرأس المرفوع . والجبين الأشم ! . وحبتاكرز تفتران عن بسمة تتأرجح بين الخجل والسحرية . بلا شعرة بيضاء في الرأس . بلا ثنية عمر في الجفن أو في العنق بلا خط في الجبين .

ووجد نفسه يهمس مرة أخرى : محالا .

وكان أمحال ببساطة أن تكون هي . . . في نفس سنها القديم حتى جاءه نفس الصوت القديم أيضا . يهزج من حلمه كانت تراني . . أليس كذلك؟

التـمت فى دورة كـاملة .. وكـانت هى أيضـا ... فـقط بلا حبوب . بلا مستحيل ...

التجعدات الدقيقة فى ركنى العينين ... وتهدلات خفيفة فى الرقبة وجيبان تحت العينين يحولان البريق المشتعل . إلى رماد أحمر

الصوت فقط بقى كما هو ..

أعاد النظر إلى المستحيل وارتجت فى داخله دقات قلبه كطبول حرب تنذر ببدء الهجوم الأخير وفى لحظة انشق الليل الباريسى عن برقه الهام

همس بصوت لم يكن صوته .

- ابنتك؟!

أجل . وأبوها يجرى اتصالا هاتفياً وسيحضر حالاً ربما أعرفه بك... فى لحظات سريعة .. حكت له قصة الصدفة!... الابنة - المستحيل - مصابة بمرض عضال وجاءا بها خلف الأمل الأخير! .

وفى الصباح ...

كان على متن الطائرة العائدة للوطن .. لم يتحمل أن يفقدها مرتين!

كلمات من دفتر قديم

المعرفة الحقيقية أن تعرف

وتتغير! . فالجاهل وحده من

لايتغير مهما عرف

«جوستاف لوبون»

بـراءة!

سقط الظل على صفحة الجريدة فأحس أنه لم يعد وحده

كان قد سار طويلاً فى ممرات الحديقة الرحبة بحثاً عن ركن قصى يحتفى فيه بجريدته . حتى وجده أخيراً فى المساحة المكشوفة الجرداء حيث لاتقترب أقدام الأطفال وخطوات الكبار المتسكعين

أخرج جريدته . وانتقى ذلك المقعد الخشبى المستلقى تحت شمس شتوية دافئة . وجلس ليقرأ ...

فى الصفحة الأولى طالعته أخبار الأزمة الأخيرة فى العلاقات الدولية . وكان يكره السياسة فطواها إلى صفحة الرياضة وراح يستمتع بقراءة ما كتب عن فوز فريقه المفضل بالأمس .

وفجأة سقط الظل على الصفحة ..

رفع رأسه فرآها ... كانت طفلة! ..

كلا ليست طفلة . بل فتاة فى عنفوانها . ذهبية الشعر ..

تنعكس الأشعة الشمسية على جبينه فتدور في بوتقة تتشكب على الجبين لتلتقى في العينين الواسعتين بشلال من صفاء

مشدودة نظرتها الودودة إلى ابتسامة على شفتيها . في تعبير لم يره من قبل في وجه امرأة . . .

أجلس ليست امرأة! فالبسمة بسمة طفلة لم تتجاوز عامها العاشر بعد وتلك البسمة التى تدعوك للمشاركة البريئة في مؤامرة صغيرة تدعمها نظرة يلمع فيها مكر طفولى خالص (لاتخبر أحداً بالسر)

ولابد أن بشاشته هو كانت رداً فقد أتاه صوتها يزغرد

- معسرة . هل أضايقك؟

ووجد نفسه يهتف بحرارة من ينفى تهمة

- إطلاقاً . .

أشارت بإيماءة خجلى إلى الجريدة في يده . .

- هل يمكنني أن أتصفح جريدتك لحظة؟ . .

قدم لها الجريدة وكان يتوسل أن تأخذ معها قلبه تناولتها وشكرته بنظرة عميقة أشعلت في داخله تلك الانفجارات الخفية لألعاب الأطفال في الأعياد عرفت رأسها في الصفحات المفرودة . ولم تبد حركة . تسمرت طويلاً وتجمد كل شيء حولها اختفت تغاريد الطيور وتلاشت صيحات الأطفال حتى ضوضاء السيارات في الشارع القريب لم تبق منها حتى الصدى . . .

وخلف سحابة داكنة توارت الشمس . وسرت في الجو قشعريرة باردة . . . سقطت الجريدة من يديها ومن عيونها انحدرت دمعتان . . رفعت إليها أصابعها المرتجفة لتمسحها ثم استدارت وولت مسرعة . .

أفاق من دهشة المفاجأة بعد لحظة . . . وانحنى بسرعة يلتقط الجريدة . .

بلهفة فتح نفس الصفحة . وراح يدور بعينيه باحثاً عن أى شيء يمكنه أن يبكى تلك الطفلة وانهمك يمسح من كل سطر قصة يعايشها حتى يبكيه . . وفجأة سقط الظل مرة أخرى مهب يواجهها . لم تكن هي . . . كانت أخرى . . .

تطلب نفس المطلب . تفتح نفس الصفحة تبكى أيضا ثم تولى الأدبار . .

نهض وسار . . يبحث عن سر غامض . . . وكن هناك بين الأشجار . . .

يتضاحكن ويشرن إليه . . . همس لنفسه في عزاء غاضب . .

- دعابة أطفال . . لا أكثر . .

كلمات من دفتر قديم :

الحقيقة قد تدمى أحيانا . . . ولكن

جروحها تخرج الدم الفاسد .

جلس الرجل الكهل على المقعد الأرجوحة ... وجلس الفتى الصبي عند قدميه ..

في عيون الأول تلمع انعكاسات الأشعة الغاربة ... وفي عيون الآخر تبرق لمحة حلم بعيد ...

قال الصبي ..

- حدثني عن جنيات البحر

حنا الكهل عينيه ثم أشعله .. وارتعد صوته بلمسة قديمة

- كن يخطرن في الليالي المقمرة .. عندما يكتمل البدر .. ترسمهن أولاً على الأمواج أشعة السنا الفضي ... ثم يتخلقن من غلالات مضمخة تتجمع من فقاعات الزبد بالرمال ... تراهن بغتة على الشاطئ يحملن قيثارتهن ويعزفن أغنيات الحب ..

- لمن؟

- لكل من يراهن!

- أكان متاحاً للكل أن يرى؟ ...

كلا يابني ... فالسر ليس مباحاً إلا لمن يملك الرؤيا ..

- ولكنك كنت ترى ..

- الرؤية غير الرؤيا

- إذاً فقد كنت تحلم؟!

- الحلم أيضاً غير الرؤيا .

أكاد لا أفهم ماذا تعني

- الرؤيا يا ولدي أن ترى بقلبك ... أن تنظر داخلك فترى ما لا تنظره عيناك .. لذلك كنت أراهن وحدي

- يدهشني غرورك .. فلست وحدك من يرى بقلبه ...

- أراه بقلبي لا يراه غيري ..

- ها أنت تناقض نفسك فقد قلت منذ هنيهة أن جنيات البحر يتبدين لكل من يراهن ...

- حسبك أن لكلٍ جنياته .. وجنياتي ليس هن جنياتك إلا إذا كنت أنت هو أنت

أنا لا أرى بعد أي جنيات ... وقد انتظرت ليالي اكتمال البدر كي شهور وسهرت حتى الفجر في كل مرة ... ولكني لم أر أيا منهن ..

لأنك لم تنظر إلى داخلك . . . ولم تر بقلبك! . . .

ـ تقودني مرة أخرى إلى سفسطة الكهول!

ـ كنت في شبابي المبكر مثلك أبحث بعيني وتهم من يرى بقلبه . . ولا عليك يا ولدي فما تعيشه من ربيعك يرحم كل مشاعرك ويكدسها في صدرك فلا تترك ثغرة ينفذ منها شعاع الرؤيا

ـ وأنت الآن تزعم أنك صاحب رؤيا؟ إن هي إلا حسرات الماضي واحباطاته تصنع لك في خريفك وهما ترى فيه عالم تستطع أن تحققه . .

ـ ربما كنت على حق! ولن أجادلك . فلم يعد يهمني أن يكون ما أراه وهما أو حقيقة فقط يهمني أن أراه . . . ولأن هاقد اكتمل البدر . وهاهي شعاعات الفضة تتجمع على قمم الأمواج . وبعد لحظة . . يتجمعن عند الشاطئ .

راح ينفث دخان الغليون بشراسة وعيناه تبرقان في مواجهة القمر . .

ونهض الفتى . . . يضرب الرمال بقدميه . . . ويفكر . . . كيف ينظر الإنسان إلى داخله ؟

كلمات من دفتر قديم :

لو أتت الرياح دائما بما تشتهي

السفن . . . لما عرف الإنسان

فرح الوصول إلى الشاطئ .

اللعبة

اجتمعنا في شرفة جارنا كعادتنا كل ظهيرة حول رقعة الشطرنج . كانت الشرفة متصلة بالشاطئ وكنا جميعا نقضي إجازة المصيف .

اكتشفنا بعد أيام قليلة أن هواية الشطرنج تجمعنا على اختلاف في قدرة كل منا وإحاطته بفنون اللعبة باستثناء جارنا . ذلك الرجل الوقور الذي يتمتع بالإضافة إلى وضعه المرموق كواحد من كبار الرجال المتنفذين في البلد بسمعة مدوية في مجال اللعبة . وقد راح يتسلى علينا واحداً بعد الآخر . . ويهزمنا في الموقعة اليومية بلا رحمة ثم يجلس في استرخائه وهو يتناول المرطبات ويشكو من افتقاده لمتعة اللعب لانعدام الندية وحرارة المنافسة وكنا رغم إحساسنا المرير بالغيظ والمهانة نستسلم لمداعباته الثقيلة مفوضين الأمر لله! . . .

حتى كان صباح ذلك اليوم المشهود ونحن منهمكون مع

فبدأت المباراة بين «جارنا» وواحد منا . . . أنهاها فجأة على صوت رفيع به نبرة حادة

- نقلة الفرس خاطئة!

رفعنا عيوننا جميعاً لنراه . . طفل نحيف بلباس البحر لا يتعدى عمره الثانية عشرة . . ولابد أن نظراتنا إليه كانت تقدح بشرر الاستهجان والسخرية . . لأنه مالبث أن أردف قبل أن ينطق أحدنا

- نقل الفرس يعرى جناح الوزير . . ولابد أن يؤكل الوزير بالتالى لأن الخصم سيحرك الرخ الحمى بعيداً يهدد الملك أو الوزير

عقدت أفواهنا دهشة . . ونظرنا إلى جارنا الذى اكفهر وجهه وتقلصت ملامحه . . . وهتف بالطفل مؤنباً

- إذا كنت تلعب الشطرنج فلابد أنك تعرف آداب المشاهدة . . وأهمها ألا يتدخل متفرج فى سير اللعب أو يدلى بأى ملاحظة!

أحنى الطفل رأسه خجلاً وغمغم :

- آسف . . . لن أنطق بحرف إذا سمحتم لى بمتابعة اللعب

أومأ جارنا برأسه معطياً له الإذن فى برود . . ثم استأنف اللعب . .

وانتهت المباراة كالعادة بفوز «الأستاذ» . . وبر الطفل بعهده ولم ينطق . . حتى بدأ جارنا العزيز فى إلقاء محاضرته اليومية عن سوء مستوى منافسيه وحماسه بالملل وانتفاء الندية!

تقدم الطفل بابتسامة ساذجة مؤدبة

- أتسمح لى بشرف اللعب معك ياسيدى؟ . . دور واحد فقط!

ارتفع حاجبا جارنا استهانة واستنكاراً . . ونظر لنا كأنه يشهدنا على حماقة الطفل . . وحين لمح على وجوهنا أمارات الترقب والتأييد . . ضحك بعصبية . . ثم غمغم بلهجة المضطر . .

- لا بأس . . ولكن كما قلت . . دور واحد فقط! . .

راح الطفل يعيد ترتيب الرقعة بسرعة . . ثم بدأت المباراة .

وبعد خمس دقائق فقط . . كان جارنا يحملق فى الرقعة بعينين جاحظتين وقد تخشب فى جلسته واحمر وجهه . . وكان الطفل يهمس وعلى وجهه ابتسامة وديعة كابتسامة الجيوكندا!

- كش ملك! . .

مات الملك! . . . وظل جارنا متسمراً مكانه . . . بينما نهض الطفل . . . يمد له يده .

- شكراً ياعمى! .

لم يصافحه الرجل . . . بل انفجر يأمره بالجلوس . .

- اجلس لنلعب دوراً آخر . . . استهنت بك فلم أركز! . .

استأنفا اللعب . . . سبع أدوار متتالية . . . انتهت كلها بنفس النتيجة .

. . وطوال الأيام التالية . . شهد الشاطئ منظراً لم يبرح ذاكرتى طوال سنوات . . الطفل يلعب الراكت مع رفاقه . .

وقريباً يجلس الرجل الوقور أمام رقعة الشطرنج ينتظر بلهفة انتهاء لعبة الراكت . . . وبداية المباراة الأخرى . . .

(تناهت إلى أسماعنا فيما بعد أقاويل عن استقالة جارنا من وظيفته واستقراره بتلك المدينة الشاطئية حيث يحمل كل يوم رقعة وصندوق الشطرنج ويطوف بهما على المقاهى باحثاً عن طفل يلاعبه) .

كلمات من دفتر قديم :

لو أن بينى وبين الناس شعرة

لما انقطعت . . . فإذا شدوا أرخيت

وإذا أرخوا شددت . . .

«معاوية بن أبى سفيان»

فيروز !

. . . ينسكب الصوت فى أذنيه شلالاً من ضياء فينير تلك المساحات المعتمة من الأحزان الجاثمة فى الأعماق . . .

وبداخله اهتزت أوتار أصدأها الصمت الطويل . . .

كانت الترنيمة تأتى من هناك . . . عبر السور الفاصل بين الشرفتين . . .

لم ينتبه قبل اللحظة لوجود من يجاوره . . فقد ظل المسكن خاليا منذ جاء ليقطن تلك البناية الجديدة . . . وظل يعانى من وحشة قاتلة ! . .

كل ما حوله فى الحى الجديد هادئ . . . راق . . . نظيف . . . حيث يلمع الصمت . . . وتتهامس الألوان المتجاورة للشجر والزهور والنوافذ الزرقاء . . .

كم كان يأنس إلى المنزل السابق فى حيّه القديم حيث يتعانق

الصخب مع توهج الناس ويلتحم الزحام بمشاعر الألفة والاقتحام . . . لكنها رحلت . . .

فجأة ذات صباح . . . صرخت . . . جاءت سيارة المستشفى . . . ذهبت . . . ولم تعد . . .

وكان لابد وأن يهرب . . . فالبقاء معها - بدونها - موت يتجدد كل ساعة . . . وبصماتها تغطى كل ما تلمسه يداه . . . وعطرها يعبق فى كل نفس يعيش عليه . . .

رحل إلى حيث لم يألف . . . إلى الصمت اللامع . . . والألوان الهامسة . . . سيظل يراها كما رآها طوال أعوام الحب المترعة . . ولكن من بعيد . . . من هنا . . . سيراها أقرب . . . ربما أبعد . . . ولكن أكثر حياة . . .

تلك الأغنية كانت أهزوجتها المفضلة . . . كلما ارتدت غلالاتها المسائية وتهادت إلى جواره وراحت تدندن له . . .

كانت تعشق هذا الصوت . . . وعلمته أن يباطنها العشق عبره . . . وتلك الكلمات بالذات . . سترجع - خبرنى العنادليب . . .

بأن البلابل لما تزل . . . هناك تعيش بأشعارنا . . .

وتساءل فى نفسه . . . أهى الصدفة وحدها؟ . . . ربما نعشق الصوت كثيرونا . .

لكن الأمر تكرر فى اليوم التالى . . . ثم فى اليوم الثالث . . .

فى نفس الموعد كل يوم . . . مع اختفاء الشمس فى حمرة الشفق . . . يدير الجار نفس الأغنية! . . . لايمكن أن تكون مجرد صدفة! همس لنفسه وهو يختلس النظر إلى الشرفة المجاورة . . .

لم يحاول عمره أن يتلصص أو يقتحم خصوصية الآخرين . . ولكن الإغراء هذه المرة لايقاوم . . . فهناك فى صدره تضطرم تلك الانفعالات وتكاد تمرضه . .

. . . ومن خلال الستار رآها . . .

كانت عتمة الرماد فى الأفق الغربى تظلل الوجه . . . لكن الرأس . . . والشعر . . . والقوام . . . وطريقة وضع الساق على الساق . . . وارتكازها بخدها على كفها . . . و . . . . .

الأغنية ! !

تجمدت أوصاله وأحس بالرعب يختلط بفرح أخرس يهدهد البكاء المكتوم . . .

هرع إلى حارس البناية . . .

- من بالشقة المجاورة! . .

- لم يقطنها أحد بعد . . .

- لكنها بالداخل . . . تجلس فى مدخل الشرفة - خلف الستار . . . وتدير شريط فيروز . . . وحملق الحارس فى وجهه هنيهة . . ثم أمسكه من ذراعه وقاده إلى الرصيف المقابل . . وأشار له بذراعه . .

- أترى؟ . . المسكن مغلق . . .

صعد معه إلى المسكن . . فتحه . . . كان خاوياً . . .

هو فى الحقيقة لم ينتقل . . . ولايستطيع ! . . .

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
المقدمة	٤
قدر !	٧
خريف	١٠
موجه	١٣
شاهد	١٦
حلم !	١٩
لقاء !	٢٢
سؤال	٢٥
حين تأتى !	٢٨
قبيل الفجر	٣١
أرانى	٣٥
غربة	٣٨
شجن	٤١
طيف	٤٤
كذبه	٤٨
عصفور !	٥١
عائده	٥٤
وعد !	٥٧
ظل	٦٠
عطر !	٦٦
رماد !	٦٩
سمر !	٧٢
بالأمس !	٧٥
سفر !	٧٨
براءة !	٨١
سمر !	٨٤
اللعبة	٨٧
فيروز !	٩١

أسامة أنور عكاشة

- من مواليد طنطا بمحافظة الغربية .
- من أسرة تعيش فى مدينة كفر الشيخ .
- حصل على ليسانس الآداب - قسم الدراسات النفسية والاجتماعية ، فى جامعة عين شمس .
- كتب القصة القصيرة والرواية ونشر فى الدوريات الأدبية حتى منتصف السبعينات .
- تحول إلى كتابة الدراما للتليفزيون من عام ١٩٧٧ .
- كتب للتليفزيون ٢٦ مسلسلا و٢٠ سهرة ، وللسينما ٥ أفلام .
- صدر للكاتب عدة مؤلفات منها : خارج الدنيا - أحلام فى برج بابل - مقاطع من أغنية قديمة - الاسكندرانى - ليالى الحلمية - الناس اللى فى الثالث

ودار نهضة مصر أصدرت للمؤلف ثلاثة كتب هى :

أوراق مسافر

تباريح خريفية

همس البحر

قررت أن أكتب في الرومانسيات ... أترك نفسي لتيار الشاعر يحملني في سفرة يومية عبر أجواء اللاشعور والمخبوء ... وما انطوت عليه الجوانح ... وأردت أن أتحسس القلم في شغاف القلب ... يستمد مداده من الجراح الحية ... ونسيج الذكريات وأحلام اليقظة وأطلال الآمال الكسيرة وإشراقات الأماني الوليدة ... مقدراً أنني في حقيقة الأمر لا أكتب تهويمات تتطاير في الهواء كدخان ... وإنما أكتب حقائق نفسية تبدو شديدة الخصوصية ولكنها في واقع الأمر تلمس أوتار القلوب لدى كل قارئ ...

لم أتصور قبلاً أن لدى كل هذا المخزون ... وأن بداخلي هذا الشاعر وإن لم يك ما يكتبه شعراً.

أسامة أنور عكاشة